موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(١٦)

التواضع

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ⓒ مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

×-٢٠١-٣٨-٩٩٦٠ (ج ١٦)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

×-٢٠١-٣٨-٩٩٦٠ (ج ١٦)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
توطئة	٥
التواضع لغةً	٧
التواضع اصطلاحًا	٨
فوائد التواضع	١٨
مظاهر التواضع	٢٧
تواضع ذوي السلطان	٥٣
تواضع العلماء	٥٧
التواضع للأبوين	٦١
التواضع للضيف	٦٣
التواضع للعلماء	٦٤
الفرق بين التواضع والضعة	٦٩
كيف ننشر فضيلة التواضع	٧٢
الفهارس	٧٥

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

توطئة:

التواضع خلق حميد، اتّسم به الأنبياءُ والعلماء والصالحون، ويكون بتنازل المرء عن شيء من قدره لغرضٍ نبيل، وفيه دليلٌ على شفافية الروح، ورجاحة العقل، وطمأنينة النفس، وصدق الشعور بوجود الآخرين وبالنفس.

والتواضع خلق ــ كسائر الأخلاق ــ ذو شقين: فردي واجتماعي؛ فهو في جانبه الشخصي يعكس حالة عليا من التسامي الروحي يتمثل في كسر الميل النفسي إلى التسلط والتفرد، ونفي دواعي العُجب والغطرسة والخيلاء؛ وهذا كله يشق على النفس الإنسانية اتباعه لما يخالف ما رُكّب في هواها من مسارعةٍ في حبّ الذات والاستجابة إلى نزعاتها الأنانية ورغبة التملك المطلقة.

ولا يلبث الإنسان المتواضع أن يحصد ثمار تواضعه، وتظهر آثار سلوكه في تعامله الاجتماعي مع الناس، عندما يتلمسون معنى التواصل الإنساني وترك الزيف والادعاء، ويُبدي لهم بشراً ومباسطةً بعيدة عن التكلف والاصطناع، فعند ذاك تفُتح له القلوب وتلين له النفوس ويصيب منها موقعًا عظيمًا، فينقلب إلى سيّد تنقاد إليه الرغائب طواعية، وينال من التقدير والإكبار والاحترام ما يعجز عن نوله وبلوغه كل أحمق متكبر، ظن أن التعالي على الناس والترفع عن مُوادّتهم والتباسط إليهم يجعله ذا مكانة في نفوسهم.

ثمة حقيقةٌ واضحةٌ تغيب عن أذهان كثير من الناس، في زحمة الحياة ومواجهة مشكلات التفاعل البشري اليومية، هي أن التواضع مفتاح القلوب والسبيل إلى ولوجها والتمكن منها، إذ أن «مَن لانت كلمته وجَبتْ محبّته». لعل ذلك يبدو أمرًا معروفًا لا لبس فيه، لكن مظاهر التعامل الاجتماعي تؤكد غياب هذا المفهوم من الناحية النظرية فضلاً عن الناحية العملية. فكثيرون أولئك الذين يعتقدون أن على الإنسان؛ كي ينجح

www.mtenback.com

في تسيير أموره ويحصّن نفسه من الأذى والتعدي، أن يقيم لنفسه حواجز (إسمنتية) تفصل ما بينه وبين الناس، فتردع عنه كل متطاول أو متطفل. وهم ينصحون إخوانهم وأقرانهم بألاّ يُقبلوا على الناس بوجوههم، إقبال المحبّ الودود، لأنهم يرون أن ذلك يجرئُهم عليهم ويزيل مهابتهم.

إن هذه الفكرة، في الواقع ناشئة عن خلط وسوء فهم لطبيعة الأخلاق الاجتماعية وشروط النجاح في التعامل الإنساني، وانعدام القدرة على إقامة التوازن المطلوب. فالمهابة والأخذ بما يوجب للمرء الاحترام والتقدير، لا يتعارض مع خلق التواضع السامي؛ والإقبال على الناس بالمودة والسرور والمعونة لا يخالف ما يرجوه كل إنسان لنفسه من إقرار بقدره وصيانة لمكانته.

ويظل الناس يدركون بطبائعهم الفطرية وميولهم النفسية العفوية، فضل التواضع وقدر المتواضع، ولا يملكون إلا أن يتوجهوا بتعاطف كبير نحو من يتواضع لهم وينزل عن بعض قدْره لأجلهم.

ومن هنا كان علينا أن نسعى لترسيخ هذا الخلق الكريم في نفوسنا وغرسه في نفوس ناشئتنا، ليقوم مجتمع نظيف على المودة والتآلف والتعاضد، خاليًا من الشحناء والبغضاء وشوائب النفس.

www.mtenback.com

التواضع لغة:

تدلّ مادة (و ض ع) في اللغة على معنى «الخَفْض» و«الحَطّ»، قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾[1]، أي أنزلنا عن كاهلك عبئًا ثقيلاً، وقال أيضًا: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[2] أي خفضها لِيَنْتَفِعَ بها بنو آدم.

وفي الحديث: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ له، أَظَلَّه اللهُ يوم القيامة تحت ظِلّ عَرْشِهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه»[3]، ومعنى «وضع له» هنا، تنازل له عن شيءٍ مما له عليه، وفي حديث آخر: «من سلك طريقًا يبتغي فيه عِلمًا سهّل اللهُ له طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِب العِلْمِ رِضًا بما يصنع»[4]. ومعنى «تضع أجنحتها»، تخفضها، وهو كنايةٌ عن التوقير والإجلال. وقد اشتمل الشعر على شيء من هذه المادّة اللغوية، منها ما قاله سُوَيْد بن أبي كاهل[5]:

كَتَبَ الرَّحْمَنُ وَالحَمْدُ لَهُ ... سَعَةَ الأَخْلاقِ فِيْنَا وَالضِّلَعْ[6]

وَإِبَاءً لِلدَّنِيَّاتِ إِذَا ... أُعْطِيَ المَكْثُورُ[7] ضَيْمًا فَكَنَعْ[8]

---

[1] سورة الشرح: الآية ٢.

[2] سورة الرحمن: الآية ١٠.

[3] النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: رياض الصالحين، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٤٧٦.

[4] النووي: رياض الصالحين، ص٤٧٩.

[5] الضبّي، المُفضّل بن محمد بن يعلى: المفضّليّات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، (١٩٩٢م)، ص١٩٧.

[6] الضِّلَع: القوّة والقُدْرة.

[7] المكثور: المغلوب على أمره.

[8] كنع: ذلّ وخضع.

www.mtenback.com

وَبِنـــاءً لِلْمَعـــالِي، إِنَّمـــا يَرْفَـعُ اللهُ وَمَـنْ شـاءَ وَضَـعْ

وقال سُحَيْم بنُ وَثِيل[٩]:

أَنَـا ابْـنُ جَـلاَ وَطَـلاَّعُ الثَّنَايَـا مَتَـى أَضَـعِ العِمَامَـةَ تَعْرِفُوْنِـي

ومعنى «أضع العمامة» في البيت أنزِعها ، أي أخلعها لأن من عادة العرب التلثم بالعمامة إتقاءً للحر أو القر وعلى ذلك جاء قول أبي الطيب المتنبي[١٠]:

سَأَطْلُب حَقّـي بِالقَنَـا وَمَشـائِخٍ كَأَنَّهُم مِن طُوْلِ مَا الْتَثَمُـوا مُـرْدُ

بخلاف ماهو شائع اليوم.

والعرب تقول: «في حَسَب فُلان ضَعَةٌ» أي فيه لُؤمٌ وَخِسَّة، وقد «وُضِعَ الرَّجُلُ في تجارته» أي مُنِيَ بخسارة، ومنه «بَيْعُ الْمُوَاضَعَة» وهو عكس «بَيْعُ الْمُرَابَحَـــة». و «الاتّضاع» أَنْ تخفِض رأسَ البعير لتضعَ قدمَكَ على عُنُقه فتركبه، يقال: «اتضع البعـير راكبه». و «تواضع الرجل» تخاشعَ، ومن الجدير بالذكر أن صيغة «تَفَاعَلَ» في العربيـة تدل على التظاهر بالشيء، نحو «تمارض» و«تغابى» و«تَعامى».

التواضع اصطلاحًا:

ومن عجب أن تعريف التواضع لم يَرِدْ في البُحوث التي سطّرها العلماء وسـببُ ذلك أنّ التواضع خُلق معقّد، يختلط بكثير من الأخلاق، كالحِلْم والعَفْو والصَّبْر والرحمة والإيثار وغيرها، على أننا لا نعدَمُ بعضَ المحاولات، منها قـول عائشـة رضـي الله عنها[١١]: إنكم لتغفُلُون عن أفضل العبادة: التواضع. وسئل الفُضَيل[١٢] عن التواضـع، فأجاب: هو أن تخضع للحقّ وتنقاد له، ولو سمعته من صبيّ قَبِلتَهُ، ولو سمِعتَه من أجهـل

---

[٩] القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم: الأمالي، بيروت، المكتب التجاري، (د.ت)، ج١، ص٢٤٦.

[١٠] البرقوقي، عبد الرحمن: شرح ديوان المتنبي، بيروت، دار الكتاب العربي، ج٢، ص٩٢.

[١١] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ج٣، ص٣٤٢.

[١٢] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤١.

www.mtenback.com

الناس قبلته. وحُكي عن بعضهم أنه قال: رأسُ التواضع أنْ تضع نفسَك عند مَن دُونَكَ في نعمة الدنيا حتى تُعلِمَهُ أنّه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمّن هو فوقك في الدنيا حتى يعلم أنّه ليس له بدنياه عليك فضل[١٣]. وقيل لبعضهم: ما التواضع؟ فقال: اجتلابُ المجد واكتساب الوُدّ، فقيل له: ما الكِبْر؟ فقال: اكتساب البُغْض وذلك من حيث نتيجة كلٍّ منهما وأثره من التعامل مع الناس[١٤]. وقد جلس الحسن وأصدقاؤه يتذاكرون التواضع، فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع ؟ التواضعُ أن تخرج من منزلك ولا تَلْقى مسلمًا إلاَ رأيتَ له عليك فضلاً[١٥].

فضيلة التواضع:

لو ردت كل خصال الكمال في الإنسان إلى التواضع لكفاه فضلاً الاتصاف به، ولأرضاه عن نفسه وأرضى الناس عنه، لأن التواضع يكون حيث تكون الثقة في النفس والرضا عن الذات وثبات الجوهر الطيب الذي لا تغيره المظاهر الخادعة، ولا يلامسه غرور البشر وكبرياؤهم. ولما للتواضع من منزلة عند الناس كافة عَدُّوه من مصايد الشرف[١٦]. وذهب بعضهم إلى أن: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حدّه وضعه الناسُ دون حدّه[١٧]. وسُئل بُزُرْجُمَهْر: هل تعرف نعمةً لا يُحسد عليها؟ قال: نعمْ ؛ التواضع، قيل: فهل تعرف بلاءً لا يُرحمُ صاحبُه عليه. قال: نعم ؛ الكِبْر[١٨]. وذلك أن التواضع فيه قهر لشهوات النفس وحبّ الأنا في

---

[١٣] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٢.

[١٤] شيخو، لويس: مجاني الأدب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، (١٩٢٨م)، ج٢، ص١١٥.

[١٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٢.

[١٦] العاملي، بهاء الدين، محمد بن حسين: الكشكول، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، مصر، (١٩٦١م)، ج٢، ص٢٢٦. وشيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١١٥.

[١٧] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٤٧.

[١٨] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

تفرّدها واستعلائها، وتميزّها عن سائر الناس وهو نعمة من حيث إن فيه مرضاة الخالق ومحبة الناس، وأمّا الكبر فبلاءٌ، لما فيه من سخط الخالق ونفور الناس وبغضهم. ولهذا سعى العقلاء لتربية النفس وتحليتها بالتواضع. قال رجل لِبكر بن عبد الله: علمني التواضع. فقال له: إذا رأيت مَنْ هو أكبر منك فقل: سبقني إلى العمل الصالح؛ فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب؛ فهو خير مني[١٩]. ويقول الماوردي: التواضع واسطة بين الكِبْر ودناءةِ النفس[٢٠]. ولعل أفضل ماقيل في تعريف التواضع هو: التواضع رضا الإنسان بمنزلةٍ دون مايستحقها فضلُه ومنزلتُه، والتواضع مع الخَلْق من باب التفضُّل عليهم، لأنه يترك لهم بعض حَقِّه[٢١].

وقد اشتملت اللغة العربية على مرادفات كثيرة للتواضع، يُقال[٢٢]: تواضع الرجلُ وتخاشعَ وتصاغر وتقاصر وتبذّل وطَامَنَ من غروره، وخفّف من غُلوائه، وكبح من جماحه، وطأطأ من إشرافه. ويقال عن المتواضع: مُوَطَّأُ الأكناف، دمِثُ الطِّباع، سَمحُ المَقادة، سَهْلُ القِياد، خافضُ الجناح.

والتواضع خلق مكتسب وصاحبه يندفع إليه بعد دربة في الحياة، ومعرفة تامة بما تحب الناس وما تكره من الأخلاق، وما أجمعت الناس على خلق إلا كان موافقًا لأوامر الله. والنفوس تنفر من المتكبر وتنجذب إلى المتواضع لشعورها بالأمن في كنفه، وإحساسها بأنه سيكفيها مؤونة الخشية، وذلّ الهيبة، وإدراكها بأنه خير حافظ للحقوق، وراع للذمم، وما وطَّأَ أكنافه إلاّ امتثالاً لأوامر الله عز وجل، الذي حث الناس على هذه الخليقة ونفَّرهم من الكبرياء، فالكبرياء رداء الرحمن، وليس لأحد من

---

[١٩] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٤٨.

[٢٠] صادر، سليم إبراهيم: جواهر الأدب، بيروت، المطبعة العلمية (١٩١٢م)، ج٤، ص٢٩.

[٢١] الأموي، عماد الدين: حياة القلوب، بيروت، دار الفكر، ج٢، ص٢٢٧.

[٢٢] الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى: الألفاظ الكتابية، بيروت مطبعة اليسوعيين، (١٨٨٥م)، ص١٣٤.

www.mtenback.com

الخلق أن يتعدى إلى ماليس له، فالمؤمن بالله يسعى في جميع تصرّفاته إلى اكتساب رضاء الله والظفر بمحبته ولا يتمّ له ذلك إلا باجتناب نواهيه وامتثال أوامره. وأنت إذا تأمّلت طبائع الكرام وجدتها تحضّ على التواضع وتحث عليه، وتحذّر الإنسان من الكبر؛ وكذلك القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢٣]، كما قال مذكّرًا بحدود قدرة الإنسان وضعفه البشري حتى لا يتجبّر ولايطغى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[٢٤].

وفي المقابل من صفات المتكبرين في الأرض،وصف الله عباده الصالحين بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٢٥]. ويُستفاد من الآيات السابقة أن الله يُحبّ المتواضعين الصالحين الذين يسيرون على الأرض سيرًا مطمئنًا بعيدًا عن الغرور والخيلاء. وقد اشتمل الحديث على مثل هذا أيضًا إذ حضّ على التواضع ودعا الناس إليه، يقول الرسول ﷺ: «إنّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد»[٢٦]. وما ذلك إلا لأن الكبر والغرور من أسباب البغي والظلم.

وربما كان مدح المرء مدعاة لتهيئته للغرور والكبرياء، لا سيما إذا كان الثناء عليه في حضرته، ومع أن بعض الناس - وخاصة الأسوياء منهم - ينكرون على

---

[٢٣] سورة لقمان: الآية ١٨.

[٢٤] سورة الإسراء: الآية ٣٧.

[٢٥] سورة الفرقان: الآية ٦٣.

[٢٦] النووي: رياض الصالحين، ص٢٧٢.

www.mtenback.com

المادحين كثيرًا من عبارات المدح والثناء، ويقرّعونهم أحيانًا إذا جاوزوا في ذلك حدود المألوف، فإن آخرين يطربون لما يسمعون من ثناء ومديح، قد لا يكون صادرًا من ناصح أو صادق، ثم يأخذه الغرور فيجنح إلى الكبرياء ظنًا منه أنه بلغ منزلة لم يتسنمها غيره، ويصيبه داء الكبر، فينزلق إلى غضب الله ثم غضب عباده.

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فعندما سمع ثناء أصحابه عليه - وهو جدير بكل ثناء - أنكر عليهم قائلاً: «لا تُطروني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريم، فإنّما أنا عبُده؛ فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[٢٧].

وحذَّر أصحابه من عاقبة التكبّر، وأظهر لهم خاتمته الوبيلة ونهايته الوخيمة، فقال: لا يدخل الجنّةَ من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبْر[٢٨]. كما قال أيضًا: من كان في قلبه مثقالُ حبّةٍ من خَردلٍ من كِبْرٍ أكبّه الله عز وجل في النار على وجهه[٢٩]. وبيّن لهم أن الله يغضب من العبد المستكبر، وأنه سبحانه قال في الحديث القدسي: «الكبرياءُ ردائي، والعَظَمةُ إزاري، فَمَن نازعني واحدًا منهما ألقيتُه في النار»[٣٠]. كما بين عليه السلام أن الله يحب العبد إذا تواضع لخلقه وعرف حدود العلاقة بينه وبينهم، كما عرفها بينه وبين ربّه. وحث الأمة على التواضع كما نفرهم من التكبّر وذكّر بأنّ: مَن تواضع لله رفعه الله ومن تكبّر وضعه الله[٣١].

---

(٢٧) الزبيدي: مختصر صحيح البخاري، دمشق، مطبعة الصباح (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص٤٥٩.

(٢٨) المنذري، زكي الدين: مختصر صحيح مسلم، دمشق، مطبعة الصباح، ص٢٧.

(٢٩) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن: مدح التواضع وذمّ الكبر، دمشق، دار السنابل، سنة (١٩٩٣م)، ص٢٧.

(٣٠) المصدر السابق، ص٢٩.

(٣١) المصدر السابق، ص٣٢.

www.mtenback.com

فيرتفع بكمال نفسه وسواء فطرته ورضا ضميره وحبّ الناس، وأما المتكبّر فيضعه بعصيانه ومخالفته للفطرة السليمة وجموح نفسه وعطشها غير المحدود للسلطة والرياسة فتغتمّ نفسه ويضيق صدره وينفضّ الصادقون عنه ولايبقى معه إلا كل منافقٍ متملّق. جاء في الحديث: «يقول الله - عز وجل - إنما أَتَقَبّل الصلاة ممّن تواضع لعظمتي ولم يتكبّر على خَلْقي، وقطع نهارَه بذكري، ولم يكن مُصِرًّا على خطيئته، يُطعِم الجائعَ ويُؤْوي الغريبَ، ويرحمُ الصغيرَ، ويُوقّر الكبير، فذاك الذي يسألُني فأُعطيه، ويدعوني فأستجيبُ له، ويضرعُ إليَّ فأرحمه فمَثَلُه - عندي - كَمَثَل الفِرْدَوْس في الجِنان ، لا يتسنّى[٣٢] ثمارها ولا يتغير حالُها». ولم يكتف ﷺ بهذا كله بل حذّر المتكبرين من هَوْل المُنتهى وسُوء المُنْقَلَب بأن صوّر المُتكبّرين في الدار الآخرة تصويراً يزرع الرعب في القلوب، فقال[٣٣]: «يُجاء يومَ القيامة بالجبّارين والمتكبّرين في صُورة الذّر[٣٤] يتواطؤهم[٣٥] الناس لِهوانهم على الله عزّ وجل حتى يُقضى بين الناس، ثم يُذهب بهم إلى النار»[٣٦]. ويُستفاد من هذه الأحاديث أنّ الكبرياء من اختصاص الله عز وجل، فإذا تكبر العبدُ المخلوق على الناس كان كمن يتشبّه بالخالق ويُنازعُه في اختصاصه أو يشاكله في أبرز صفاته.

لهذا كله يعمد العاقلُ إلى التخلّي عن الغرور والإقلاع عن العُجب، فلايتكبر على أحد من الناس، بل يعاملهم بالحُسنى، ويخفض لهم جناح المودّة، يفعل ذلك حِرْصًا منه على اكتساب رضوان الله ودفع عذابه، أما الأحمق فإنّه يتعجرف ويتغطرس وفي هذا شقاؤه وهلاكه فضلاً عن احتقار الناس له ونفورهم منه وإعراضهم عنه.

---

[٣٢] يتسنى: يفسد، تغيّره السنون.

[٣٣] ابن عساكر: مدح التواضع وذم الكبر، ص٣٦.

[٣٤] الذّر: النمل الصغير.

[٣٥] يتواطؤهم: يدوسهم. (ولعلها: يتوطّؤهم)؛ لأنها أصح.

[٣٦] ابن عساكر: مدح التواضع وذم الكبر، ص٣٦. رواه الترمذي بلفظ آخر.

www.mtenback.com

وإنما يعمد العاقل إلى نفي الغرور والكبرياء عن نفسه؛ لأنه يعلم عِلْمَ اليقين أنّ الدنيا لا تدوم على حال، وكم من قرونٍ هلكتْ، وأممٍ اندثرت، وعظيمٍ ذَلَّ بعد عِزّ، واتّضعَ بعد شرَف !..[٣٧]:

فَكَمْ قَرْنٍ[٣٨] أَبادَتْ بَعْدَ قَرْنٍ وَجيلٍ أَهْلَكَتْ مِنْ بَعْدِ جيلِ!
وَإِمّا أَخْطَأَتْكَ يَدُ المَنايا فَمُخْطِيهَا مُصِيبُكَ عَنْ قَليلِ

وإذا كانت الحياةُ تقلُّبًا بين النعيم والشقاء، والعزّة والهوان، واليأس والرجاء فما أَجْدرَ الإنسانَ بالتواضع، وما أحْراهُ بالإقلاع عن الغرور والانصراف عن الكِبْر والامتناع عن الفخر؟! والعاقل الحصيف يأخذ هذا كله في الحُسبان، فلا يزهو على أحد، ولا يتكبّر على مخلوق خشيةَ أن تنقلب به الحال، ويتنكر له الزمان، فيغدو موضعًا لاحتقار الناس، ومحلاً لشماتتهم وزرايتهم.

ومظنة الكبر وسببه هو المال أو الجاه، والمال والجاه صائران إلى الزوال، مُعرّضان للنّفاد، فليس عليهما مُعوَّلٌ، قال أبو العتاهية[٣٩]:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابنُوا لِلْخَرابِ فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إِلى تَبابِ
لِمَنْ نَبْنِي وَنَحْنُ إِلى تُرابٍ نَصِيرُ كَما خُلِقْنا مِنْ تُرابِ؟!

ومافائدة اقتناء المتاع، وابتناء القصور، إذا كان الموت سيأتي على كلّ شيء، وسيمحو كلَّ موجود على ظهر الأرض، ولكن يبقى الذكر الجميل والفعل الحسن. والتواضع من أحسن الأعمال وأجل الأفعال. أما الدنيا فكما يقول فيها أبو العتاهية[٤٠]:

---

[٣٧] الصُّولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار الشعراء، بيروت، ص١٨٧.

[٣٨] القرن: الجيل، أهل زمان واحد.

[٣٩] الأصبهاني، أبو الفرج علي بن حسين: الأغاني، دار الكتب، القاهرة، (١٩٧٤م)، ج٤، ص٧٠.
التباب: الهلاك.

[٤٠] فيصل، شكري: أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، دمشق، مطبعة جامعة دمشق (١٩٦٥م)، ص٢٩٦.

www.mtenback.com

سَأَقْنَعُ مابَقِيتُ بِقُوتِ يَوْمٍ ... وَلا أَبْغِي مُكاثَرَةً بِمالِ
تَعالى اللهُ ياسَلْمَ بْنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْناقَ الرِّجالِ
هَبِ الدُّنيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

واللبيب يعلم أن الناس يُقبلون على الرجل إذا كان غنيًّا مُوْسِرًا، فإذا زال مالُه، وتغيّرتْ حالُه، انصرفوا عنه، وأقبلوا على غيره[٤١]:

ما النَّاسُ إلاَّ مَعَ الدُّنيا وَصاحِبِها ... فَكَيْفَما انْقَلَبَتْ يَوْمًا بِهِ انْقَلَبُوا
يُعَظِّمُون أَخا الدُّنْيا، فَإِنْ وَثَبَتْ ... عَلَيْهِ يَوْمًا بِما لا يَشْتَهِي وَثَبُوا

لذلك لاترى العاقل مزهوًا بماله ولا فخورًا بمتاعه، بل تراه متواضعًا مع الناس مُحسنًا إليهم، مقبلاً عليهم؛ لئلا يشمتوا به إذا افتقر. قال أبو العتاهية، ينتقد رجلاً مغرورًا بثرائه، فخورًا بماله[٤٢]:

أَبا جَعْفَرٍ إنَّ الشَّرِيفَ يَشِينُهُ ... تَتَايُهُهُ[٤٣] بَيْنَ الأَخِلاَّءِ بِالوَفْرِ
فَإِنْ تِهْتَ فِينا بِالَّذي نِلْتَ مِنْ غِنًى ... فَإِنَّ غِنانا بِالتَّجَمُّلِ وَالصَّبْرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الغِنَى ... وَأَنَّ الغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الفَقْرِ ؟!

ومن تأمّل الحياة، وخاض تجاربها، برزت له الحقائقُ الكامنة، فوقف على الأسرار وأدرك أن الدنيا خؤون، لاتُبْقي على أحد، ولا تَدَعُ لمخلوق شيئًا من المباهج والمسرّات، فدأبُها التغيُّر، وشأنُها التحول، ودَيْدَنُها التقلُّب، وهذه بعض الأخبار نسوقها للعِظة والاعتبار: قيل إن محمد بن عبد الملك الزيّات عمل تنّورًا من حديد،

---

[٤١] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص٣٢.

[٤٢] الأصبهاني: الأغاني، ج٤، ص٧٨.

[٤٣] التتايُه: الفخر.

www.mtenback.com

ووضع مسامير في داخله ليُعذِّبَ مَن يريد عذابه. فكان هو أوّلَ من جُعِل فيه، وقيل له: ذُقْ مارُمْتَ أنْ تُذيق الناس[٤٤]. وحكى بعضهم قال: رأيت في الطّواف إنسانًا، وبين يديه حَجَبَةٌ يمنعون الناس لأجله من الطواف، ثم رأيته بعد ذلك يمّر على جسر ببغدادَ يسأل الناس شيئًا، قال: فتعجبّتُ من أمره، فسألتُه عن ذلك، فقال: أنا تكبّرتُ في موضع يتواضعُ الناس فيه، فأذهب اللهُ تعالى جاهي ومالي، وابتلاني بالذل في موضع يتعاظم فيه الناس[٤٥]. وبنى ابن ذي النون، وكان من ملوك الأندلس، قصرًا له، وأنفق في بنائه أمواله حتى جاء على أكمل بُنيان في الأرض، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بِرْكةَ ماءٍ كأنها بُحيرة، وبنى في وسطها قُبّة، وساق الماءَ من تحت الأرض حتى علا القُبّة على تدبيرٍ قد أحكمه المهندسون، وكان الماء ينزل من أعلى القُبّة حوالَيْها مُحيطًا بها متصلاً بعضُه ببعض، فكانت القُبّة في غِلالة من ماء ينسكبُ انسكابًا لا يَفْتُرُ، وابنُ ذي النون قاعدٌ فيها، فرُوي أنّه بينما كان نائمًا إذْ سمع مُنشدًا يُنشد هذه الأبيات:

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخَالِدِينَ وَإِنَّمَا ... مُقَامُكَ فِيهَا – لَوْعَلِمْتَ – قَلِيلُ

لَقَدْ كانَ فِي ظِلِّ الأَراكِ كِفَايَةٌ ... لِمَنْ كَانَ يَوْمًا يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

فلم يلبث – بعدها – إلا يسيرًا حتى قضى نَحْبَهُ فالعاقل يتأمل حال الدنيا ويتدبره، فلا يغترّ بها ولايعظُم في عينيه أبناؤها، جاء في كتب الأدب[٤٦]: ركب مَلِكٌ يومًا في زيّ عظيم، فتشرّف له الناس ينظرون إليه أفواجًا حتى مرّ برجلٍ يعمل شيئًا مُكبًا عليه، فلم يلتفت إليه، ولا رفع رأسه، فوقف الملكُ عليه، وقال: كلُّ الناس ينظرون إليّ إلاّ أنت !.. فقال الرجلُ: إني رأيتُ مثلَك، وكان على هذه القرية، فمات

---

[٤٤] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص١٢٢.

[٤٥] الأموي: حياة القلوب، ج٢، ص٢٢٨.

[٤٦] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص٢٧.

www.mtenback.com

هو ومسكينٌ في يوم واحد، فدُفن إلى جانبه، وكُنا نعرفهما - في الدنيا - بجسديهما، ثم كنّا نعرفهما بقبريهما، ثم نَسَفت الريح قبريهما، وكشفت عنهما، فاختلطت عظامُهما، فلم أعرفِ الملك من المسكين، فلذلك أقبلت على عملي، وتركتُ النظرَ إليك ، وقد قيل في هذا المعنى أبيات هي:

وَحَقِّكَ لَوْ كَشَفْتَ التُّرْبَ عَنْهُمْ ... لَمَا عُرِفَ الغَنِيُّ مِنَ الفَقِيرِ

وَلا مَنْ كانَ يَلْبَسُ ثَوْبَ شَعْرٍ ... وَلا البَدَنُ المُنعَّمُ بِالحَرِيرِ

فالإنسان العاقل يدرك أنّه مخلوق ضعيف، كما يعلم أنّ جسده واهٍ ضعيفٌ تعتريه الأسقامُ، وتطرأ عليه العللُ والأدواء[٤٧]، كما يعلم أنه مُعرَّض لسهام المِحن والأرزاء[٤٨]، وهو فضلاً عن ذلك كله يعرف أنّ كل نجاح يُحرزه، وكلُّ توفيقٍ يُصادفه، إنّما هو بفضل الله عليه وإحسانه إليه، لا بسعيه الخاصّ أو كدّه الشخصي، ولذلك تراه يتواضع للناس، ويعترف بفضل الله عليه وإحسانه، كما تراه ينفي عن نفسه بسلوكه وفعله الغرور والخُيلاء ، وكأنه بتواضعه يعزو [٤٩] الفضلَ إلى صاحبه وهو الله عزّ وجلّ، وقد انتقد الشاعر المعرّيُّ أولئك الناس الذين يظنون أنّ ماهم فيه من خير ونعْمة إنما هو من كدّ يمينهم وعَرَق جبينهم فقال [٥٠]:

تَوَرَّعُوا يَابَنِي حَوَّاءَ عَنْ كَذِبٍ ... فَمَا لَكُمْ - عِنْدَ رَبٍّ صَاغَكُم - خَطَرُ

وقد لاحظ الحكماءُ والمفكّرون هوان الإنسان وتواضع نشأته وضعف جسده، ومايصير إليه من وَهْن واضمحلال للقُوى فأبرزوا له هذا الجانب الخطير كي يكبحوا من جِماحه، ويقلّصوا شيئًا من غروره، ويُذكّروه بما نسِيه أو غفل عنه، وقال بعض

---

[٤٧] الأدواء: جمع داء.

[٤٨] الأرزاء: جمع رُزْء وهو المصيبة.

[٤٩] يعزو: ينسب.

[٥٠] المعري، أحمد بن عبد الله: لزوم مالا يلزم، بيروت، دار صادر، ج١، ص٤٣٤. الخطر: القيمة والأهمية.

www.mtenback.com

الملوك لحكيم: عِظني عِظةً تَنْفي عني الخُيلاء، وتُزهّدني في الدنيا فقال لـــه: فكّـرْ في خَلْقِك، وتذكّر مَبْداك، فإذا فعلتَ ذلك صَغُرتْ عندك نفسُك[٥١]. لقد بيّن الحكيم أن حقيقة الأشياء في أصلها وبدايتها، وعلى طالب الحكمة أن ينظـــر في الجواهـــر لا في الأعراضَ المتقلّبة.

فوائد التواضع:

قد يتساءل المرء: ما الغاية من التواضع، وما الفائدة منه ؟ والجواب أنّ المتواضع يفوز برضوان الله، ويظفر بمحبّة الخَلْق، وحسبُه بهذا شرفًا، لأنه أحرز السعـــادة، ونال الشرف، وعاش في طُمأنينة واستقرار نفس لايعرفه إلا المتواضعون.

فليس هنالك غرضٌ أعظم، ولا غايةٌ أنبلُ من الفـــوز برضـــوان الله والسعـــادة بمحبتـــه، يقول رسول الله ﷺ: «ماتواضع أحد للّه إلاّ رَفَعَهُ»[٥٢]. وقـــد وعـــد الله عباده المتواضعين الجنّة، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥٣]. وأكّد الرسول الأكرمُ ذلك إذ قال: طوبى لمن تواضع في غير مسكنة،وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخـــالط أهل الفقه والحكمة[٥٤].

وقال: إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة[٥٥]. وإذا تأمّلتَ سِيرة رسول الله وجدتَ أنّها أُنموذجٌ بديعٌ لِلخُلُق العظيم، ومثالٌ للرأفة والسماحة والتواضع يقـــول

[٥١] الحُصْري، أبو إسحاق: زهر الآداب، القاهرة، المكتبة التجارية، (١٩٢٥م)، ج٤، ص١٤٦.

[٥٢] المنذري: مختصر صحيح مسلم، ص٥٣٧. والنووي، رياض الصالحين، ص٢٧٢.

[٥٣] سورة القصص: الآية ٨٣.

[٥٤] الغزالي: إحياء علوم الدين،ج٣،ص٣٤٠

[٥٥] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤١.

www.mtenback.com

عليه الصلاة والسلام: «خيّرني ربي بين أمرين: أنْ أكون نبيًّا ملكًا، أو نبيًا عبدًا، فلم أدرِ أيُّهما أختار، وكان صَفيّي - من الملائكة - جبريل، فرفعتُ رأسي إليه، فقال: تواضعْ لربك. فقلتُ: عبدًا رسولاً»[٥٦]. وكان يُحبّ مُجالسة المتواضعين وينفر من مجالسة المتكبّرين ويحث أصحابه على خلق التواضع لمن دونهم، فبمحبة الآخرين يحبهم الله ويدني مجالسهم وقد قال: «ألا أخبركم بأَحبّكم إليّ وأقربكم مني مجالسَ يومَ القيامة؟ أحاسنكُم أخلاقًا، المُوطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون»[٥٧].

والتواضع يجلب لصاحبه ما لا يجلبه المال وإن كثر، ويحقق ما لا يُقدر بثمن، ألا وهو محبة الناس، وما ذلك إلا لأن البشرَ ينفرون من المتكبّر، ويفرّون من لقائه؛ لأنه يطمس معالم الإنسانية ويتجاوز حدود اللياقة الاجتماعية فيبغضه الناس ويكرهون لقاءه بخلاف المُتواضع الذي يحترمهم، ويقدّر مشاعرهم ويوطئ أكنافه لهم، ويتيح لهم سبل الإفصاح عن إنسانيتهم، والإعراب عن وجودهم، لذلك تراهم يُقبلون عليه ويحبّونه، ويرفعون من شأنه، وينشرون ذِكْرَهُ.

وقد لا يعبّر الناس في حضرة المتكبر - عن اشمئزازهم منه واحتقارهم له وإنما يقولون ذلك إذا كان غائبًا، وربما عمدوا إلى شتْمه ولَعْنه وذِكْر مافيه من جفاءٍ وغلظةٍ وفظاظة، وتراثُنا حافل بمدح المتواضعين، وبالكثير من أخبارهم وقِصصهم، قال أحد الشعراء[٥٨]:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَـزْدادَ قَـدْرًا وَرِفْعَـةً ... فَلِنْ وَتَواضَعْ وَاتْرُكِ الكِبْرَ وَالعُجْبَـا

وقال الآخر:

---

[٥٦] رواه أحمد في المسند، ٢/٢٣١..

[٥٧] النووي: رياض الصالحين، ص٢٧٨. وانظر المبرد: الكامل، ج١، ص٤. والقالي: الأمالي، ج٢، ص٢٩٦.

[٥٨] الدّجوي، أحمد سعيد: فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، حلب، مطبعة التوفيق، ص٢٨.

www.mtenback.com

تَواضَعْ تَكُنْ كَـالنَّجْمِ لاحَ لِنـاظِرٍ عَلى صَفَحاتِ المـاءِ وَهْـوَ رَفِيـعُ
وَلاتَـكُ كَالدُّخَّـانِ يَعْلُـو بِنَفْسِـه إِلى طَبَقـاتِ الجَـوِّ وَهْـوَ وَضِيـعُ

ومن ألطف الأخبار التي تصوّر التواضع ما رواه يحيى بن أكثم، قال: ماشـيتُ المأمون يومًا من الأيام في بستان مُؤنسةَ بنتِ المَهْديّ، فكنتُ من الجانب الذي يستره من الشمس، فلمّا انتهى إلى آخره، وأراد الرجوعَ أردت أن أدور إلى الجانب الذي يستره من الشمس، فقال: لا تفعلْ، ولكن كن بحالك حتى أَستُرك كما سترتني، فقلت: يا أمير المؤمنين لو قَدَرْتُ أن أَقِيَكَ حَرّ النار لفعلتُ، فكيف الشمس؟! فقال: ليس هذا من كَرَم الصُّحبة، ومشى ساترًا لي من الشمس كما سترته[٥٩]. إن هذا الخبر البديع يدلنا على المستوى الخلقيّ الرفيع الذي كان يتحلّى به المأمون وعلى عِظَم معنى الصُّحبة في نفسه، فهو يرى أن المُصاحبة تُلغي مابين المُتصاحبَيْنِ من الفروق، وتقتضي كلاً منهما أن يفتديَ صاحبه بنفسه، ويضحّي بنفسه من أجله، فما أروع هذا الفهم الثاقب، وما أنبل هذا الخُلُق، وما أشرف هذا السلوك الذي يتحلى فيه تواضع النفس وعدم اغترارها بالسلطان والجاه.

وأدرك الحكماء، في كل مكان وزمان، أنّ الإحسان إلى الناس والتواضع لهم من أسباب النجاح في الحياة والسيادة، قال أبو عمرو: لمّا احتُضر[٦٠] ذو الإصْبَع دعا ابنَه أُسَيْدًا، فقال له: يابُنيّ إنّ أباكَ قد فنِيَ وهو حيٌّ وعاش حتى سئِم العيش، وإنّي مُوصيك بما إنْ حفظتَه بلغتَ في قومكَ مابلغتُه. فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسُط لهم وجهك يُطيعوك، ولا تستأثر[٦١]عليهم بشيء يُسوِّدوك وأكرمْ صِغارهم كما تُكرِم كبارهم يكرمْك كبارُهم، ويكبرْ على مودّتك

---

[٥٩] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١٤٠.

[٦٠] احتُضر: حَضَره الموت.

[٦١] استأثر بالشيء: استبّد به وخص به نفسه.

www.mtenback.com

صغارُهم واسمحْ[٦٢] بمالك، وأَعزِزْ جارك، وأعِنْ من استعان بك، وأكـــرمْ ضيفـــك وأسرع النَهْضَةَ[٦٣] إلى الصريخ[٦٤]، فإنّ لك أجلاً لا يَعْدوك[٦٥] وصُنْ وجهك عـــن مَسْألةِ أحدٍ شيئًا؛ فبذلك يتمُّ سُؤْدَدُكَ[٦٦]، وقد أدرك العلماء في تحليلاتهم جوهر فـــائدة التواضع من ضدّه، وهو الكبر، الذي فيه مخالفة الفطرة وشرور النفس.

قال المُحاسبيّ: «أصل سُوء الخُلُق الإعجاب، وهل يُسيء خُلُق الآدمي إلاّ عُجْبُهُ وتكبّره وأنّه لا يرى فوقه أحدًا، ولا يعرف قدْرَ نفسه، فتتداخلـــه العِـــزّة؟!..»[٦٧].

ولذلك عمل المصلحون التربويون على النصح بالتزام التواضع، والتشديد على ذلـــك في المواقف المناسبة. فعن أبي بكر الهُذليّ قال[٦٨]: بينما نحن مع الحَسَن إذْ مرّ علينا ابـــنُ الأهتم يُريد المقصورةَ وعليه جِلبابُ خَزّ نُضِد بعضُها فوق بعضٍ على ساقه، وانفـــرج عنها قَباؤه وهو يمشي يتبختر إذ نظر إليه الحسنُ، فقال: أفٍ أفٍ، شامخٌ بأنفه، ثـــاني عِطْفه، مُصعّرٌ خدّه ينظر في عِطفيه، أيُّ حَمِقٍ أنت ؟ تنظر في عِطفيكَ في نِعَـــم غـــير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المُؤدّى حـــقُّ الله منهـــا؟! والله ماغشّى[٦٩] أحدٌ طبيعته، يتخلّج تخلُّجَ المجنون إلا كان في كلّ عضوٍ مـــن أعضائـــه لله نِقْمة، وللشيطان فيه لُعْبة، فسمع ابنُ الأهتم، فَرَجَعَ يعتذر إليه، فقال: لاتعتـــذِرْ إليّ،

---

[٦٢] اسمح بمالك: جُدْ به ولا تبخل.

[٦٣] النهضة: النجدة.

[٦٤] الصريخ: المُستنجد.

[٦٥] لا يعدوك: لا يتأخر عنك ولا يخطئك.

[٦٦] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص٤٨.

[٦٧] العاملي: المخلاة، ص٨١.

[٦٨] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٣٩، وشيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١١٥.

[٦٩] غشّى: غشّ، زيّف، زوّر.

www.mtenback.com

وتُبْ إلى ربّك، أَمَا سمعتَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾(٧٠).

والتواضع لا يلغي الأنفة وعزة النفس، وليس معناه التهالك والانحدار بالنفس أو بكرامتها ليقال: فلان متواضع، التواضع نفسه يعلي منزلة صاحبه، وليس صاحبه هو الذي يعليه أو يرفع منزلة نفسه. والناس إذا أحسوا تواضع الرجل رفعوه فوق مايريد، وأعلوا شأنه، وأحبوه، وكم تردد في مجالسهم قولهم: فلان دمث الخلق متواضع على علو منزلته الاجتماعية أو المالية أو العلمية أو سواها، كما سمعنا في المقابل عن متكبرين حط الناس من شأنهم لما شعروا به من خلق، وتاريخنا العربي مملوء بالمواقف من كلتا الخصلتين فالعرب جبلوا على العزّة والأنفة، وفُطِروا على النخوة والكرامة، لذلك اتسم شيوخهم وملوكهم بالعدل والتواضع، ونتيجة تكبر صاحب القوة أو السلطان هي الحرب والدمار، لأن العرب لاتخضع لمتكبر ولاتذل لطاغية. والشاهد مصيرحجر بن الحارث الكِنْديّ، والد امرئ القيس الشاعر المعروف الذي بلغ من ظُلمه أنه فَرَضَ على بني أسد إتاوةً باهظة، فرفضوا أداءها إليه، ولمّا تمردوا عليه عمد إليهم فقتل نفرًا من رؤسائهم، وأساء معاملتهم فما كان منهم إلاّ أنْ قتلوه وتخلّصوا منه، على أنّ ابنه واصل – من بعده – السير على نهجه، وعقد العزم على الثأر له، وعندما وصل إليهم نبأ تهديده ووعيده ردّوا عليه، يقول شاعرهم عَبيد بن الأبرص(٧١):

يا ذا المُخَوِّفُنا بِقَتْـ	ـلِ أَبِيهِ إِذْلالاً وَحَيْنا(٧٢)
هَلاّ عَلى حُجْرِ بْنِ أُمْـ	ـمِ قَطامِ تَبْكِي، لا عَلَيْنا

(٧٠) سورة الإسراء: ٣٧.

(٧١) البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب ولب لُباب لسان العرب، مصر، دار الكتاب العربي، (١٩٦٨م)، ج٢، ص٢١٣.

(٧٢) الحَيْن: الموت.

www.mtenback.com

نَحْنُ الأُلى، فَاجْمَعْ جُمُو عَكَ، ثُمَّ وَجِّهْهُمْ إِلَيْنَا
لا يَبْلُغُ البَانِي، وَلَوْ رَفَعَ الدَّعائِمَ، مابَنَيْنَا
كَمْ مِنْ رَئِيسٍ قَدْ قَتَلْـ ـنَاهُ وَضَيْمٍ قَدْ أَبَيْنَا!.

ومن الواضح أنّ الشاعر وقومه رَفَضُوا الذُلّ وأبوا الهوان، فكرامتُهم فوق كلّ شيء. ومما لا رَيْبَ فيه أنّ العربي ميّالٌ إلى المُباهاة والفَخر، وقد حَفَلَ الشعر العربي بالكثير من ذلك، وحسبنُا دليلاً على ذلك أبيات قالها عمرو بن كلثوم(٧٣):

وَرِثْنا المَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُطاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينا
إذا ما المَلْكُ سامَ النَّاسَ خَسْفًا(٧٤) أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينا
لَنَا الدُّنْيا وَمَنْ أَمْسى عَلَيْها وَنَبْطِشُ حينَ نَبْطِشُ قادِرِينا
إِذا بَلَغَ الفِطامَ لَنا رَضِيعٌ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا

على أن هذه النبرة المُسْتَعْلِية لا يجوز أَنْ تُفسَّرَ بأنها ضَرْبٌ من الغُرور أو نوع من العَجْرفة، لسببين: الأولّ أنها كانت ردًا على ظُلم واقع، وضيمٍ نازل، وقد حاول الشاعر أَنْ يدفعه عن نفسه، وعن قومه حفاظًا على شرفهم أن يُهان. والثاني أن نار العصبية – في تلك الحقبة – كانت مضطرمة متقدة، وكان الشاعر في أبياته يثأر لكرامته التي حاول عمرو بن هند أن يمسّها وينال منها، ثم إن الشاعر كان يستخدم ضمير الجماعة في أبياته وهذا يدلّ على أنّ فخره لم يكن بنفسه بل بقومه، ولذلك لا يدخل في باب التكبّر(٧٥):

(٧٣) ابن الأنباري، أبو بكر، محمد بن القاسم: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، مصر، دار المعارف، (١٩٦٣م)، ص٣٩١.

(٧٤) الخَسْف: الذلّ والهوان.

(٧٥) ابن الأنباري: شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات، ص٣٧٠-٣٨٧. وانظر: البغدادي: خزانة الأدب، ج٣، ص١٣٦. مُقتَوِينا: خدَم، مفردها: مَقْتَوِيّ.

www.mtenback.com

أَبـا هِنْـدٍ فَـلا تَعْجَـلْ عَلَيْنـا ... وَأَنْظِرْنـا نُخَـبِّرْكَ اليَقينـا
بِأَنَّـا نُـورِدُ الرَّايـاتِ بِيضًـا ... وَنُصْدِرُهُـنَّ حُمْـرًا قَـدْ رَوينـا
وَأَيَّـامٍ لَنـا غُـرٌّ طِـوالٍ ... عَصَيْنـا المَلْـكَ فِيهـا أَنْ نَدينـا
تُهَدِّدُنـا وتُوعِدُنـا رُوَيـدًا ... مَتـى كُنَّـا لأُمِّـكَ مُقْتَوينـا؟!.

والحقّ أن الفخر أمرٌ يختلف عن التكبّر كلَّ الاختلاف فهو وسيلة لغرض آخر وليس للتباهي، إنه يتوخّى شحْذ الهمم وإثارة النخوة وشدّ العزائم ولذلك كان يلقى الإعجاب والتقدير، والدليل على ذلك أنّ أحد الشعراء قال(٧٦):

أَلْهى بَني تَغْلِبٍ عَنْ كُـلِّ مَكْرُمَـةٍ ... قَصِيدَةٌ قالَها عَمْـرُو بْـنُ كُلْثُـومِ

ثم إنّ هذه القصيدة جاءت ردًّا على إهانة حاول الملكُ عمرو بن هند أن يُلحِقها بالشاعر، فالأخبار تَرْوي(٧٧) أنه قال لندمائه ذاتَ يوم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمُّه من خِدْمة أمّي؟ فقالوا: نعم. أمُّ عمرو بن كلثوم. قال: ولِـمَ؟ قالوا: لأنّ أباها المُهَلْهِل بن ربيعة، وعمّها كليبُ وائل أعزُّ العرب، وبَعْلَها كُلْثومُ بنُ مالك أفرسُ العرب، وابنها عمرو وهو سيّد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره يسأله أن يصطحب معه أُمّه لتزور أمّ عمرو بن هند، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحِيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلتْ ليلى بنتُ مهلهل في ظُعُنٍ(٧٨) من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برِواقه(٧٩) فضُرِبَ فيما بين الحِيرة والفُرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فَحَضَرُوا في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن

(٧٦) الأصبهاني: الأغاني، ج١١، ص٥٤.

(٧٧) المصدر السابق، ج١١، ص٥٣.

(٧٨) الظُعُن: النساء في هوادجهنّ.

(٧٩) الرواق: سقف في مُقَدّم البيت

www.mtenback.com

هند في رواقه ودخلت ليلى وهندٌ في قُبّة من جانب الرِّواق، وكان عمرو بن هند أَمَرَ أُمّه أن تُنحّيَ الخَدَمَ إذا دعا بالطُّرُف[٨٠] وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالطُّرُف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطَّبقَ، فقالت ليلى: لتقُمْ صاحبةُ الحاجةِ إلى حاجتِها. فأعادت عليها وألحّت. فصاحت ليلى: واذلّاهْ !.. يا لَتَغْلِبٍ ! فسمعها عمرو ابن كلثوم، فثار الدمُ في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند، فعرف الشرَّ في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند مُعلّقٍ بالرِّواق ليس هناك سيفٌ غيرُه، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة ففي ذلك يقول عمرو بن هند: ألا هبّي بصحنك فاصبحينا.

إن فخر عمرو بن كلثوم بقومه ليس من قبيل التكبّر، ولم يكن إلاّ دعوة إلى العزّة والكرامة، ورفضًا للذلّة والمهانة، لهذا لقي الإعجاب والتقدير، وسار على الألسنة. وما الفخر إلا ما كان بالمكارم واعتزازًا بالقيم النبيلة، لا بالأمور التافهة والنَزَعات الإجراميّة، ثم إن الفخر الفرديّ يجري على هذا السَّنن أيضًا، فهذا حاتم الطائي[٨١] يفتخر بكرمه وتواضعه:

وَقَدْ عَلِمَ الأَقْوامُ لَوْ أَنَّ حاتِمًا ... أَرادَ ثَراءَ المالِ كانَ لَهُ وَفْرُ

عُنينا زَمانًا بِالتَّصَعْلُكِ وَالغِنى ... كَما الدَّهْرُ في أَيّامِهِ العُسْرُ وَاليُسْرُ

فَما زادَنا بَأْوًا[٨٢] عَلى ذي قَرابَةٍ ... غِنانا، وَلا أَزْرى[٨٣] بِأَحْسابِنا الفَقْرُ

---

[٨٠] الطُّرُف: جمع طِراف وهو الغريب النادر من الثمار والفواكه.

[٨١] البغدادي: خزانة الأدب، ج٣، ص١٢٧. وانظر: ديوان حاتم الطائي، لندن، مطبعة آل سام (١٨٧٢م)، ص٢٩.

[٨٢] البأو: الفخر والتباهي.

[٨٣] أزرى: حطّ وقلل واستخفّ.

www.mtenback.com

لقد جمع بين الفخر والتواضع الحقيقي بل إنه أعطى درسًا في التواضع بتأكيده على أن النعمة لم تطغه و لم تُنْسِه إخوانه، وحاتم هو الذي قال أيضًا[٨٤]:

إذا كانَ بَعْضُ المَالِ رَبًّا لأَهْلِهِ — فَإِنّي - بِحَمْدِ اللهِ - مَالِي مُعَبَّدُ
يُفَكُّ بِهِ العانِي[٨٥] وَيُؤْكَلُ طَيِّبًا — ويُعْطَى إِذا مَنَّ البَخِيلُ المُصَرَّدُ[٨٦]

فإنّ حمد الشاعر لله دليل على ردّ الفضل لصاحبه واستذكاره له وعند ذلك يكون الفخر فرحًا (بريئًا) بالنعمة الإلهية.

وهذا عنترة بن شدّاد العبسي[٨٧] يفخر أيضًا بشجاعته وعفّته وحلمه:

أَثْني عَلَيَّ بِما عَلِمْتِ فَإِنَّني — سَمْحٌ مُخالَطَتِي إِذا لَمْ أُظْلَمِ
فَإِذا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِيَ باسِلٌ[٨٨] — مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ
هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يا بْنَةَ مالِكٍ — إِنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِما لَمْ تَعْلَمِي
يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّنِي — أَغْشَى الوَغَى[٨٩] وَأَعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

وقد استحسن الرسول ﷺ قوله: أغشى الوغى وأعفُّ عندَ المغنم. وعروة بن الورد[٩٠] يفخر بكرمه وتواضعه لضيفه وهو في قوله ليس مدّعيًا كاذبًا ولا مستكبرًا متعاليًا، فيقول[٩١]:

---

[٨٤] الطائي: ديوان حاتم الطائي، ص١٧.

[٨٥] العاني: الأسير.

[٨٦] المصرّد: البخيل والمُقتّر.

[٨٧] ابن الأنباري: شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات، ص٣٣٦.

[٨٨] باسل: بشع وكريه.

[٨٩] أغشى: أحضر الحرب. الوغى: المعركة والحرب.

[٩٠] شيخو: مجاني الأدب، ج٦، ص٢٤٠.

[٩١] الساغب: الجائع. المعترّ: الفقير. القرى: الكرم والسخاء والطعام يُقدّم للضيف.

www.mtenback.com

سَلِي السَّاغِبَ الْمُعْتَرَّ يا أُمَّ مالِكٍ إِذا ما اعْتَرانِي بَيْنَ قِدْرِي وَمَجْزَرِي
سَأَبْسُطُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ القِرَى وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي

وربما استنكر بعضُهم العُدوان، وكره الحرب، وفي ذلك دلالة واضحة على مبلغ ما كان عليه القوم من وعي ورُقيّ بخلاف ماهو شائع. يقول عَبيد بن الأبرص[٩٢]:

وَإِنّي لأُطْفِي الحَرْبَ عِنْدَ شُبوبِها وَقَدْ أُوقِدَتْ لِلْغَيِّ فِي كُلِّ مَوْقِدِ
وَإِنّي لَذُو رَأْيٍ يُعاشُ بِفَضْلِهِ وَما أَنا مِنْ عِلْمِ الأُمُورِ بِمُبْتَدِي
لَعَلَّ الَّذِي يَرْجُو رَدايَ[٩٣] وَمَوْتَتِي سَفاهًا وَجُبْنًا أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدِي

وعندما جاء الإسلام قضى على روح الاستعلاء، وحارب الفخر بالأسلاف والأجداد، حتى إنه لّما أنشد النابغةُ الجَعْديُّ[٩٤] قصيدته في حضرة رسول الله ﷺ وبلغ إلى قوله:

بَلَغْنا السَّماءَ مَجْدُنا وَجُدُودُنا وَإِنّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرا

بادر الرسول ﷺ، فقال: «إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال النابغة: إلى الجنّة، فقال: نَعَم».

مظاهر التواضع:

ليست الأخلاق كنوزًا مدفونة في أعماق النفس البشرية، وما هي بالأسرار المحتجبة، ولولا تجلّيها على مرآة الواقع، وبروزها في مجال السلوك، لكانت ضربًا من العَدَم لا معنى له ولا قيمة، ولفضيلة التواضع مظاهر كثيرة تعبر عن وجودها، نلحظها في حسن المعاملة للناس التي هي مظهر جلي من مظاهر التواضع حيث يحب الناس المرء إذا

---

[٩٢] شيخو: مجاني الأدب، ج٦، ص٢٣٩.

[٩٣] الردى: الموت.

[٩٤] البغدادي: خزانة الأدب، ج٣، ص١٧٠.

www.mtenback.com

كان متواضعًا سمْحًا لطيف المعشر موطّأ الأكناف دَمِثَ[٩٥] الطباع، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا حين خاطب رسوله الكريم، فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٩٦]. ذلك أن الرحمة التي كان يتحلى بها الرسول عليه السلام واللطف الذي اتّسم به، والسماحة التي عُهدت عنه كانت سرّ انتصار الإسلام وانضواء الناس تحت لوائه، ولو أنّه ﷺ عامل الناس بالغِلْظة، وأخذهم بالقَسْوة، لانفضّوا من حوله ولخلّفوه وحيدًا ولا نصرفوا عنه. وصَدَق أبو الفتح البستي في قوله[٩٧]:

أَحْسِنْ إِلى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ فَطالَما اسْتَعْبَدَ الإِنْسانَ إِحْسانُ

وقد حفَلَت السيرةُ النبوية بالمواقف التي تدلّ على تواضع الرسول وسماحته، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقًا»[٩٨] وعنه: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما سبّني قطُّ، ولا ضَرَبَني ضَرْبةً، ولا انتهرني[٩٩]، ولا عَبَس في وجهي، ولا أمرني أمرًا فتوانيتُ[١٠٠] فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحدٌ من أهله قال: «دَعوه فلو قُدّر شيءٌ لكان»[١٠١]. هذا هو الخُلق العظيم وتلك هي النفسُ الراقية النبيلة التي تُراعي أحوال البشر، وترحم ضعفهم وتغتفر زلاتهم، ولا تسلك

---

[٩٥] دمث: ليّن وناعم.

[٩٦] سورة آل عمران: الآية ١٥٩. الفظاظة: الغلظة والجفاوة.

[٩٧] البستي، أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين: ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، دمشق، مجمع اللغة العربية، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

[٩٨] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ١١٢، حديث رقم ٦٢٠٣.

[٩٩] الانتهار: الزجْر واللوم القاسي والتأنيب.

[١٠٠] توانيت: أبطأت وتأخّرت.

[١٠١] أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب ١، حديث رقم ٤٧٧٣.

www.mtenback.com

معهم ضروب القسوة وألوان الجفاء والغِلْظة، بل تجنح إلى المحبة والرحمة والصفح الجميل. عن ابن مسعود، قال: «كأني أنظُر إلى رسول الله ﷺ يَحْكي نبيًا من الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليه؛ ضربه قومُه فأدمَوْه وهو يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»[١٠٢]. وبلغ من تواضعه أن كان مضرب المَثَل في بساطة العيش ولُطف المعشر، فقد أتاه رجل من بين يديه، فاستقبلته رِعْدةٌ، فقال النبي ﷺ: «هوّنْ عليكَ، فإنّي لستُ بِملكٍ، إنّما أنا ابنُ امرأة من قُرَيْشٍ تأكل القديد»[١٠٣].

بمثل هذه الشمائل الراقية والسجايا الإنسانية الطيبة استطاع عليه الصلاة والسلام أن يعطِفَ القلوبَ إليه، ويستميل الأفئدة نحوه، وتمكّن أن يحوّل الناس، من الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء، إلى نور الهداية، بل استطاع أن يجعل منهم - في أَمَدٍ قصير - خيرَ أمّة أُخرِجتْ للناس.

وكان الصحابة، رضوان الله عليهم، على غرار رسول الله لُطفًا وحلمًا وتواضعًا ودماثةً ورحابةَ صدر، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: لا يَحْقِرنّ أحدٌ أحدًا من المسلمين؛ فإنّ صغير المسلمين عند الله كبير[١٠٤]. وأول كلامٍ قاله عمر حين صعد المِنبر، أن قال: اللهم إني شديدٌ فَلَيِّنّي، وإنّي ضعيف فقوّني، وإنّي بخيلٌ فسخّني[١٠٥]. وبلغ من تواضع عمر أن وقف لامرأة فأغلظت له القول. فقال رجل: يا أمير المؤمنين مارأيتُ كاليوم !.. قال: ومايمنعني أن أسمع لها؟! وهي التي سمِعَ اللهُ لها، وأنزل فيها ما

---

[١٠٢] النووي: رياض الصالحين، ص٢٨٢.

[١٠٣] أخرجه ابن ماجة في كتاب الأطعمة، باب ٣، حديث ٣٣١٢.

[١٠٤] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٣٨.

[١٠٥] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تهذيب تاريخ الخلفاء، دمشق، دار الألباب (١٩٩٠م)، ص١٠٠.

www.mtenback.com

أنزل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[١٠٦]. وعمر بن الخطاب هو الذي كتب إلى سعد بن أبي وقاص: إنّ الله، إذا أحب عبدًا، حبّبه إلى خَلْقه فاعتبْر منزلتكَ من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أنّ مالك، عند الله، مثلُ ما للناس عندك[١٠٧]. فمحبةُ الناس للرجل من محبة الله له، ودعا علي بن أبي طالب إلى التواضع، فقال: ثلاث هن رأس التواضع: أن يبدأ بالسلام من لَقِيه، ويرضى بالدُّون من شَرَف المجلِس، ويكره الرياء والسُّمْعة[١٠٨].

ومما لا ريب فيه أن احترام الناس والتودّدَ إليهم والتواضع لهم واستقبالهم بالبِشْر والتَّرْحاب من أعظم الأسباب المؤدّية إلى نجاح المرء وفلاحه في الدنيا والآخرة، والإنسان في عصرنا الحاضر أحوج مايكون إلى صفة التواضع واللين للناس والسماحة معهم، وهو خلق يرثه العربي اليوم عن أسلافه العرب الأولين، فقد قيل لقيس بن عاصم: بمَ سُدْت قومكَ ؟ قال: ببذل الندى وكفّ الأذى ونُصْرة المولى وتعجيل القِرى[١٠٩]. وسأل معاوية[١١٠] عَرَابةَ الأوسي: بمَ سُدْت قومك ياعَرَابةُ ؟! فقال: كنتُ لهم كما كان حاتم لقومه. فقال معاوية: وكيف كان ؟ فأنشده:

وَأَصْبَحْتُ فِي أَمْرِ العَشِيرَةِ كُلِّهَا ... كَذِي الحِلْمِ يُرْضَى مايَقُولُ وَيُعْرَفُ

وَذَلِكَ أَنِّي لا أُعادِي سَرَاتَهُمْ[١١١] ... وَلا عَنْ أَخِي ضَرَّائِهِمْ أَتَنَكَّفُ[١١٢]

---

[١٠٦] سورة المجادلة: ١.

[١٠٧] ابن عبد ربه، أحمد بن محمد: العقد الفريد، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، (١٩٦٥م)، ج٢، ص٣١٦.

[١٠٨] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٢٦٢.

[١٠٩] الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصر، مطابع دار الكتاب العربي (١٣١٤هـ)، ط ٣، ج٢، ١٨٧.

[١١٠] القالي: الأمالي، ج١، ص٢٧٤.

[١١١] السَّراة: زعيم القوم ويجمع على سَرَوات

[١١٢] أتنكف: أقطع معروفي وأمتنع عن مساعدة الناس.

www.mtenback.com

وَإِنِّـي لأُعطِـي سـائِلِي، وَلَرُبَّمـا أُكَلِّـفُ مـالا أَسْـتَطِيعُ فَـأَكْلَفُ

وإنّي - والله - لأعفو عن سفيههم، وأحلُـم عـن جـاهلهم، وأسـعى في حوائجهم، وأعطي سائلهم، فمن فعل فِعلي فهو مثلي، ومنَ فعلَ أحسنَ من فِعلي فهـو أفضلُ منّي، ومن قصّر عن فعلي فأنا خير منه، فقال معاوية: لقد صدق الشمّاخ[113] إذ يقول فيك:

رَأَيْـتُ عَرابَـةَ الأَوْسِـيَّ يَسْـمُو إِلَـى الخَـيْراتِ مُنقَطِـعَ القَرِيـنِ

إِذا مـا رايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ تَلَقّاهـا عَرابَـةُ بِـاليَمِينِ

هذه صفة من يريد أن يحبه الناس ويلهجوا بذكره في الماضي البعيد وفي الحاضر اليوم. وطبيعة الإنسان العربي وشمائله الحسنة لاتتغير. وقبل الإسلام ساد كثـير مـن الكرام عشائرهم، وكسبوّا محبة الناس وفازوا بالسمعة الطيّبة، ومنهم جـدُّ الرسـول ﷺ، فقد روي أن عبد المطلب[114]، كان يأمر أولاده بترك البغي والظلم، ويحثّهـم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن سفاسف الأمور، ومنهم هاشم الذي كان يحمل ابن السبيل ويؤدّي الحقوق، واسمُه عمرو، ولكنهم لقّبوه هاشمًا لأنه أوّلُ من هشم الـثريد لقومه في مكّة في سنة لَزْبة[115] قَحْطَة، فرحل فيها إلى فلسطين، واشترى منها الدقيـق، وقدِم به إلى مكة، ونحر الجُزُر[116]، وجعلها ثريدًا عمّ به أهلَ مكّة، حتى قـال فيـه الشاعر[117]:

يَا أَيُّهـا الرَّجُـلُ المُحَـوِّلُ رَحْلَـهُ هَـلاَّ نَزَلْـتَ بِـآلِ عَبْـدِ مَنـافِ

---

(113) المبّرد: الكامل، ج١، ص١١٨.

(114) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٨٢.

(115) لزبة: شديدة القحط.

(116) الجُزُر: جمع جزور وهي الإبل.

(117) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٨٤.

www.mtenback.com

الرَّائِشُونَ،وَلَيْسَ يُوجَدُ رَائِشٌ وَالقَائِلُونَ: هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ
وَالخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ حَتَّى يَكُونَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

والحقّ أن هذه الخلال الحميدة ما اجتمعت في شخص إلا جعلت منه سيّدًا، وقد جاء الإسلام فباركها وعمّقها وحضّ عليها. قال عزّ وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[118]. وقال سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[119]. وقد لاحظ الحكماء ما لبشاشة الوجه وطلاقة المحيّا من وقع حسن وأثر طيّب في الناس، ففي الحديث[120]: «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أَنْ تَلْقى أخاكَ بوجه طَلْق». وروي عن كعب الأحبار[121]، قال: مكتوب في التوراة: ليكن وجهُك سبطًا تكنْ أحبَّ إلى الناس ممّن يُعطيهمُ الذهب والفضّة.

ويقول المنصور[122] في الحث على بشاشة الوجه وطلاقة المُحيّا: «إذا أحببتَ المَحْمَدَةَ من الناس بلا مؤونة فالْقَهُمْ ببِشْرٍ حَسَنٍ».

العفو والصفح:

ومن مظاهر التواضع أن يكون المرء عَفُوًّا كريمًا متسامحًا لا يحمل غِلاً، ولا يُضمر حقدًا، وفي هذا دليل على نُبْله، وبرهان على كماله، فهو - وإن كان على الانتقام قادرًا - يغلب نفسه، ويكظم غيظه، ولا ينخدع بقوته، لِعلمه أنّ هناك من هو أقوى

---

[118] سورة فصلت: الآية ٣٤.

[119] سورة الشعراء: الآية ٢١٥.

[120] النووي: رياض الصالحين، ص٢٩٩.

[121] الوشاء، أبو الطيب محمد إسحق: الموشى أو الظّروف والظرفاء، دار صادر، بيروت، (١٩٦٥م)، ص٣٨. وسبط اليدين: سخيّ.

[122] الوشّاء: الموشى أو الظرف والظرفاء، ص٣٨.

www.mtenback.com

منه وأقدر، ولثقته بأن الصفح الجميل واصطناع المعروف أشرف وأعظم. يقول حاتم الطائي[١٢٣]:

وَأَغْفِرُ عَوْراءَ[١٢٤] الكَرِيمِ ادِّخارَهُ وَأُعْرِضُ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّما

ولّما فتح النبي ﷺ مكّة ودخلها جاء إليه المشركون من أهلها بعد أن فعلوا ما فعلوه معه ومع أصحابه من المكايد وكثرة الأذى، يطلبون منه الأمان خائفين على أنفُسهم، فلمّا رآهم قال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١٢٥]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عديّ بن أَرْطاة: أمّا بعدُ فإن أَمكنَتْكَ القُدرةُ على المخلوق فاذكرْ قُدرة الخالقِ عليك، واعلمْ أنّ ما لك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك[١٢٦]. وقال خالد بن عبد الله القَسْريّ لبلال بن أبي بُرْدة: «لا يحملَنّك فَضْلُ المَقْدرة على شدّة السطوة، ولا تطلب من رعيتك إلا ماتبذله لها؛ فإنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون»[١٢٧].

وما سلوك العفو بهذه الروح الطيبة إلا مظهر من مظاهر التواضع، وعلامة من علاماته، لأن النفوس التي جبلت على التواضع لا تحقد ولا تميل إلى السوء.

الزهد في متاع الدنيا:

ومن علامات التواضع أيضًا أن الرجل الصالح يعرض عن متاع الدنيا، ويزهد في مسرّاتها ومباهجها، حتى تبدو لعينيه تافهةً رخيصة بجنب مايستشعره من الثقة بكرم

---

[١٢٣] البغدادي: خزانة الأدب، ج٣، ص١٢٢. وانظر المبرد: الكامل، ج١، ص٢٩١.

[١٢٤] العوراء: الغلطة والخطيئة والزلّة

[١٢٥] الأموي: حياة القلوب، ج٢، ص٢٢٩.

[١٢٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج١، ص٤٠.

[١٢٧] المصدر السابق، ج١، ص٤١.

www.mtenback.com

الله وعفوه، وبالقياس إلى ما وعد الله به الصالحين من النّعيم والسرور في جنان النعيم، ولوتأملنا حياة الفضلاء والصالحين لوجدناها تجري على منهج من الزهد، إيمانًا منها بنتائجه الحسنة، وعاقبته في الدنيا والآخرة. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[١٢٨]: «نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً. فقال: مالي وللدنيا ؟!.. ما أنا في الدنيا إلاّ كراكبٍ استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها». وعن أسلمَ[١٢٩] قال: قدِم عمرُ رضي الله عنه الشامَ على بعيرٍ، فجعلوا يحدّثون بينهم، فقال عمر: تطمح أبصارُهم إلى مراكب مَن لاخَلاقَ له. ونحن قد نتساءل: ما الذي حملَ الرسولَ وصحابته على هذا الزهد في متاع الدنيا والإعراض عن مباهجها، وما الذي دعاهم إلى عدم الاستمتاع بما أفاء الله عليهم ؟ والجواب هو أنهم أعرضوا عن الدنيا لأنهم طمحوا إلى ماهو خير وأبقى، وتطلّعوا إلى ماهو أسمى وأشرف، ثم إن الدنيا خدّاعة غرّارة، ما انغمس امرؤ في نعيمها إلا وقع في المعاصي، ولا رضع أحد أفاويقها إلا تورّط في الآثام والذنوب، ولا خاض رجل في شهواتها إلا لحقت به الأوزار، وصدق من قال[١٣٠]:

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيابِ صَدِيقِ

على أن هذا النمط من العيش يعكس، من جانب آخر، رغبة القوم في التواضع وحرصهم عليه، لأن القصورَ المُنيفةَ والجنود الكثيرة ومظاهر الأبهة، من ملامح المتكبرين المتجبّرين. لقد أرسل قيصر الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلمّا دخل المدينة سأل أهلها: أين ملككم ؟ فقالوا: مالنا ملك بل لنا أمير، وقد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج الرسولُ في طلبه، فرآه نائمًا في الشمس على

---

[١٢٨] الترمذي، سنن الترمذي: موسوعة السنة، كتاب الزهد، الباب ٤٤، والوطاء: الفراش.

[١٢٩] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٢٥٣.

[١٣٠] قائله: أبو نواس.

www.mtenback.com

الأرض فوق الرمل الحارّ، وقد وضع درّته[١٣١] كالوسادة، والعرقُ يسقط من جبينه إلى أنْ بلّ الأرض، فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه، وقال: رجلٌ يكون جميعُ الملوك لا يَقَرُّ لهم قرارٌ في هيْبته، وتكون هذه حالُه ؟!.. ولكنّك - ياعمر - عَدَلْتَ، فأمنتَ، فنمْتَ، وملكُنا يجور، فلا جَرَم[١٣٢] أنّه لا يزال ساهرًا خائفًا[١٣٣]. وقد نظم حافظ إبراهيم[١٣٤] أبياتًا يخلّد فيها هذا الموقف العظيم لرجل حيزت له الدنيا وخضعت لهيبته الملوك ودانت له الجبابرة فلم يتكبّر ولم يتجبّر ولم يعشْ في القصور ولم يصطنع الجُنْدَ والحُرّاس لحمايته، بل نام في العراء آمنًا مطمئنًا؛ لأنّه حقق العدالة، ونشر الأمن؛ فلا حاجة إذن إلى القلق ولا داعيَ إلى الخوف:

وَراعَ صاحبَ كِسْرى أَنْ رَأى عُمَرًا ... بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عُطْلاً[١٣٥] وَهْوَ راعِيها

وَعَهْدُهُ بِمُلُوكِ الفُرْسِ أَنَّ لَها ... سُورًا مِنَ الجُنْدِ وَالأَحْراسِ يَحْمِيها

رَآهُ مُسْتَغْرِقًا فِي نَوْمِهِ، فَرأى ... فِيهِ الجَلالَةَ فِي أَسْمى مَعانِيها

مُسْتَلْقِيًا تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْحِ[١٣٦] مُشْتَمِلاً ... بِبُرْدَةٍ كادَ طُولُ العَهْدِ يُبْلِيها

فَقالَ قَوْلَةَ حَقٍّ أَصْبَحَتْ مَثَلاً ... وَأَصْبَحَ الجِيلُ بَعْدَ الجِيلِ يَرْوِيها

أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العَدْلَ بَيْنَهُمُ ... فَنِمْتَ فِيهِمْ قَرِيرَ العَيْنِ[١٣٧] هانِيها

---

[١٣١] الدرّة: العصا.

[١٣٢] لا جرم: قطعًا وحتمًا.

[١٣٣] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٦٨.

[١٣٤] حافظ إبراهيم: ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه: أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) ج١، ص٩٠.

[١٣٥] عُطلاً: مجرّدًا من مظاهر الملوك.

[١٣٦] الدوح: الشجر.

[١٣٧] قرير العين: مطمئن القلب وآمن السرب.

www.mtenback.com

و لم يكن سائر الصحابة بأقلّ من عُمَرَ في التواضع، بل كانوا على غراره يتصفون بالتواضع والبُعد عن مظاهر الأبّهة، وبقهر النفس الأمّارة بالسوء النّزاعة إلى الغرور، فعن عبد الله بن سلاّم[١٣٨] أنه مرّ في السوق وعليه حُزمةٌ من حطب، فقيل له: مايحملُك على هذا وقد أغناكَ اللهُ ؟!.. قال: أردتُ أن أدفعَ الكِبْر؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه خَرْدَلَةٌ من كِبْر». وقال عَوْن بن المُعمّر[١٣٩]: وروى صالح بيّاع الأكسية[١٤٠] عن جَدّته، قالت: «رأيتُ عليًّا رضي الله عنه اشترى تمرًا بدراهم، فحمله في مِلحفته، فقلتُ له: أَحمل عنكَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ أبو العيال أحقُّ أن يحمِلَ. فهذه صورة من التواضع الذي لاتشوبه الضعة نعرضها لرجال رغبوا عن عَرَض الدنيا، وزهدوا في متاعها فلا يحفلون بزخارف الحياة ولا يعبؤون بالمظاهر الخادعة، كانت الدنيا - على رَحْبها - عندهم جسراً إلى التربية السليمة والأخلاق الفاضلة، وقد برهنتِ الأيامُ على صِحّة نظرهم وسَداد تفكيرهم، إذ لو أقبلوا على مسرات الدنيا ورفاهية العيش ومظاهر الترف والأبّهة، لما شادوا صرْح الحضارة الإسلامية الشامخ، ولما خضعت لهم الدُّوَل، ولما انقادت لهم الشعوب. ولئن سها بعضُ الخلفاء عن هذه الحقائق فإنّ الصالحين من الوعّاظ كانوا يذكّرونهم بأن الحياة حُلم قصير ورحلة سريعة ودار مؤقتة وبأن هناك بعثًا ونشوراً وحسابًا. قام بعض الزهّاد بين يدي المنصور[١٤١] فقال له: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها؛ فاشتر نفسَك ببعضها، واذكر ليلةً تبيتُها في القبر لم تَبتْ قَبْلهَا ليلةً، واذكرْ ليلة تَمَخّضُ عن يوم لا ليل بعده. فأُفْحِمَ المنصور وأمر له بمالٍ. فقال: لو احتجتُ إلى مالِكَ ما وَعَظْتُكَ. وقال

---

[١٣٨] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٢٦١.

[١٣٩] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص١٧٩.

[١٤٠] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٢٥٧.

[١٤١] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص٢١٠.

www.mtenback.com

الأصمعيّ: صنعَ الرشيدُ طعامًا وزَخرَفَ[١٤٢] مجلسَه، وأحضرَ أبا العتاهية، وقال لـــه: صِفْ لنا مانحن فيه من نعيم الدنيا فقال أبو العتاهية:

عِـــشْ مـــابَدا لَـــكَ ســـالِمًا   في ظِـــلِّ شـــاهِقَةِ القُصُـــورِ

قال الرشيد: أحسنتَ، ثم ماذا ؟ فقال :

يُسْـــعى عَلَيْـــكَ بِمـــا اشْتَهَيْـــ   ـــتَ لَـــدى الـــرَّواحِ أَوِ البُكُـــورِ

فقال: حسن، ثم ماذا ؟ فقال:

فَـــإِذا النُّفـــوسُ تَقَعْقَعَـــتْ[١٤٣]   في ظِلِّ حَشْـــرَجَةِ[١٤٤] الصُّـــدُورِ

فَهُنـــاكَ تَعْلَـــمُ مُوقِنًـــا   مـــاكُنْتَ إِلاَّ فـــي غُـــرورِ

فبكى الرشيدُ، فقال الفَضْلُ بن يحيى: بعثَ إليكَ أميرَ المؤمنين لِتَسُرَّه فَحَزَنْتَه فقال الرشيد: دعْه؛ فإنّه رآنا في عمىً؛ فكره أنْ يزيدنا منه[١٤٥]. كذلك كان المسلمون الأوائل، يخافون الله ويخشونه في كل حركاتهم وسكناتهم، ولذلك سادوا البشـــريّةَ، وبلغوا المجد، وغَدَوْا مَضْرِب المَثَل في العدل والتواضع الذي هو البناء الصحيح السـليم لقيام مجتمع معافى من الأمراض السلوكية والمعنوية والخلقية الضارة.

وليس التواضع صلاحًا للدين وسداداً في الآخرة فحسب، ولكنه صلاح للدنيـا وسداد لأمر المرء في نفسه ومع من يصاحبه ويتعـلق به، ولا تقوم المجتمعات الحيـة، والأمم القوية حتى في هذا العصر الحاضر إلا إذا ابتعدت عن الغرور والكبر وغمط الناس، وتعامل أفرادها بالسوية ورأى كل منهم أنه قليل الجهد وحده كثير الخير مع

---

(١٤٢) زخرف: زيّن.

(١٤٣) تقعقعت: اضطربت.

(١٤٤) الحشرجة: تردُّد النفَس عند الموت.

(١٤٥) شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص٣٥.

www.mtenback.com

غيره. والحاضر يشهد أن الأمم التي تسود الأرض اليوم هي أمم تطور فيها مفهوم العمل والجهد الجماعي وابتعدت عن الأنانية والفردية القاتلة؛ وحكمتها أسس العدل والتواضع بما ينجز الفرد مهما كان إنجازه وامتحان قدراته. وليس أدل على ذلك مما نعيشه من كلمة دائرة في أوساط مجتمعات التقدم وهي عمل الفريق وجهد الفريق، حتى أصبحت صفة فريق العمل إحدى مفردات هذه الحضارة، وإذا قرن المرء عمله بعمل غيره، ممن هو مثله في القدرة، عرف تواضع جهده مع جهد غيره، فلم يصب بغرور ولا حام حوله كبر، وأصلح كل واحد من نفسه بفعل محاكاته لزميله أو صديقه في العمل والجهد.

وممّا لا ريب فيه أن هذا النزوع إلى التواضع ما هو إلا استمرارٌ لعادات العرب وتواضعها. كما كانت صفة من عمل الرسول ﷺ يرويها أصحابه، يحسن أن نورد بعضها كما رواها أبو سعيد الخدري عندما سئل عن تغير الحال فقال لسائله[١٤٦]: يا ابنَ أخي كُلْ للّه، واشربْ للّه، والبس لله. وكلُّ شيءٍ من ذلك دَخَلَه زَهْوٌ[١٤٧] أو مُباهاةٌ أو رياء أو سُمْعةٌ فهو معصية وسَرَفٌ، وعالجْ في بيتكَ من الخدمة ما كان يُعالج رسولُ ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح[١٤٨]، ويعقِل[١٤٩] البعير، ويَقُمُّ[١٥٠] البيت، ويحلُب الشاة، ويَخْصِفُ[١٥١] النَّعْل، ويرقَعُ الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيا[١٥٢]، ويشتري من السوق، ولا يمنعُه الحياءُ أن يُعلّقه بيده أو يجعله في طرَف ثوبه،

---

(١٤٦) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٦.

(١٤٧) الزهو: المباهاة والغرور.

(١٤٨) الناضح: البعير يُستقى عليه.

(١٤٩) يعقل: يربط.

(١٥٠) يقمّ: يكنس.

(١٥١) يخصف النعل: يخرزها ويلصقها.

(١٥٢) أعيا: تعب.

www.mtenback.com

وينقلبُ إلى أهله، يصافح الغنيَّ والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئًا على كلّ من استقبله من صغير أو كبير أو أسود أو أحمر، حرّ أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حُلّةٌ لمدخله وحُلة لمخرجه، لا يستحي أن يُجيبَ إذا دُعي وإنْ كان أَشْعثَ أغبر، ولا يحقرُ ما دُعِي إليه، وإن لم يجد إلا حَشَفَ[١٥٣] الدقل[١٥٤]، ولا يرفع غَداءً لِعَشاء ولا عَشاءً لغداء، هيّن المؤونة، لين الخُلُق، كريم الطبيعة، جميل المُعاشرة طليق الوجه، بسّامٌ من غير ضَحِكٍ). فأين نحن اليومَ من هذه الخلال الحميدة، وأين نحن اليومَ من هذه الخصال الشريفة ؟ لقد غرِقنا في وَحْل المظاهر التافهة، وغدا كلٌّ منّا يحسُد الآخر على مارزقه الله، وينافسه في ابتناء القصور، و لم يَعُدْ لنا من هَمٍ سوى شراء الأثاث الفاخر وركوب السيارات الفارهة وارتداء الملابس الأنيقة، وغَفَلْنا عن أنّ الأخلاق هي الجَوْهر وهي الأصل بل هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارةُ. فليتنا نتحرّر من هذه الأوهام التي سيطرتْ علينا واستبدّت بنا وجعلتنا نلهث في إثْر المال من غير نَظَرٍ في العواقب وفحْصٍ للنتائج، ولو أننا فعلنا ذلك لَوَجَدْنا أنّ إغراقنا في النزعة الماديّة هو السببُ الكامن وراء شقائنا، وهو المصدر الرئيس لكلّ مانشعر به من قلقٍ وتشاؤم ونقصٍ.

والتواضع في سلوك الناس لم يمنع من الإنتاج النافع والارتفاع إلى قمم المجد في الدنيا وإصلاح المكاسب ولكنه منع من الوهم بالقدرة ومنع من التواكل وأبعد شبح ازدواج الشخصية التي يعاني منها من لم يتجرد من غرور الذات، وقد يكون فيما يحس من الغرور هلاكه وهلاك مجتمعه ومن يعيش معه، ولا شك أن الحاضر لا يذعن لوساوس النفوس المغرورة، ولا يستجيب لمطالب الادعاء الكاذب بالشرف أو الغنى أو غيره مما يصاب به من لم يضع نفسه وعمله وقدره ومساهمته في الحياة العامة موضعها الصحيح، ويعرف مايقدم لمجتمعه فرداً وما يستطيع تقديمه مع الجماعة.

---

(١٥٣) الحشف: أردأ أنواع التمر.

(١٥٤) الدقل: التمر الردي.

www.mtenback.com

العطف والرحمة:

ومن سمات المتواضعين أيضًا العطفُ على المُستَضْعَفين والرأفةُ بالمساكين والإشفاقُ على المظلومين بخلافِ مانراه لدى الجَبّارين المُستكبرين من غِلْظةٍ على الناس واحتقارٍ لهم وتجهُّم في وجوههم واستهجانٍ لآرائهم وتهكّم بهم وما ذاك إلاّ لأنّ الكِبرَ أعمى قلوبهم بل رانَ عليها، وقد صوّر لنا الغزالي سلوك هذا الصنف من البشر، فقال: فإذا صادف أحدُهم رجلاً ممّن دونَه حَقَرَه وازدراه وأقصاه عن نفسه، وترفع عن مُجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقّه أن يقوم ماثلاً بين يديه. وربما استنكف عن استخدامه و لم يجعلْه أهلاً للقيام بين يديه ولا لخدمة عتَبَته، فإن كان دون ذلك أنفَ من مُساواته، وتقدّم عليه في مَضايق الطُّرق، وارتفع عليه في المَحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام، وإنْ حاجَّ أو ناظَرَ أنفَ أن يَرُدّ عليه وإنْ وعَظَه استنكف من القَبُول، وإنْ ردّ عليه شيئًا من قوله غضب وإنْ عَلّمَ لم يرفُق بالمتعلّمين، واستذلّهم وانتهرهم، وامتنّ عليهم واستخدمهم[١٥٥].

وقد حملتْ إلينا الكتبُ كثيرًا من أخبار أولئك المُتعجرفين، وهي تدلّ على مَبْلَغ جفائهم ومدى غفلتهم أو بُعْدِهم عن روح الإسلام وتعاليمه السَّمْحة. قال النبي ﷺ[١٥٦] لرجل: «كُلْ بيمينكَ. قال: لا أستطيعُ. فقال النبيّ ﷺ لا استطعتْ!. فما مَنَعَهُ إلاّ كِبْرُه. قال: فما رَفَعَها بعد ذلك». وروى الجاحظ[١٥٧]: أن المشهورين بالكِبْر من قريش: بنو مخزوم وبنو أُميّة، ومن العرب بنو جعفر بن كِلاب وبنو زرارة بن عديّ. وأمّا الأكاسرة فكانوا لا يَعُدّون الناس إلاّ عبيدًا وأنفسهم إلاّ أربابًا.

---

[١٥٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٤.

[١٥٦] النووي: رياض الصالحين، ص٢٧٥. وانظر الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٧.

[١٥٧] الأبشيهي: المستطرف، ص١٢٩.

www.mtenback.com

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفُني ؟ قال: لا. قال: أنا المسرور بنُ هنـــد!.. قال: ما أعرفُك!.. قال: فَتَعْساً ونُكسًا لمن لم يعرف القمر[١٥٨].

ومن أشد صور الكبرياء وضوحًا ما روي عن ابن عوانة، قيل إنّه كان من أقبح الناس كِبْرًا: رُوي أنّه قال لغلامه: اسقِني ماءً. فقال: نعم. فقال له: إنّما يقول: (نعـــم) من يقدر أن يقول (لا) اصفعوه، فَصُفِع[١٥٩]. وأعجب مـــن ذلـــك مافعلـــه بـــأحد الفلاحين، فقد «دعا ابن عوانة يومًا أكّارًا [١٦٠]، فكّلمه، فلمّـــا فَـــرَغ دعـــا بمـــاء، فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته»[١٦١]. وقيل لابـــن أرطـــاة: «مـــالك لا تحضُـــر الجماعة؟!.. قال: أخشى أنْ يُزاحمني البقّالون»[١٦٢]. ومن أطـــرف ماوصلنـــا مـــن أخبـــار المتكبرين خبر وائل بن حجر[١٦٣]، وكان قد جاء إلى النـــبيّ ﷺ، فأقطعـــه أرضًا، وكلف معاوية رضي الله عنه بمرافقته إلى تلك الأرض لكي يُطْلِعه عليها ويكتبها له، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته، فأحرقه حرُّ الشـــمس. فقال معاوية له: أَردْفني خَلْفَكَ على ناقتك! قال وائل: لست من أرداف الملوك. قـــال: فأعطني نعليك!.. قال: مابُخْلٌ يمنعُني يا بن أبي سُفيان، ولكن أكرهُ أن يَبْلُغَ أقيال اليمن أنّك لبست نعلي، ولكن امشِ في ظلّ ناقتي؛ فحسبُك بها شرَفًا. أرأيت ما كان من أمر وائل هذا، فلقد بلغ في الغرور مبلغًا بعيدًا، ولكن الله لا يدع جبّارًا متكبرًا على مـــاهو عليه، بل لابد أن يذله لكي يعلم أن عاقبة الكِبْر سيئة، قيل: إن وائلاً[١٦٤] هذا لحِـــق

---

[١٥٨] الأبشيهي: المستطرف، ص١٢٩.

[١٥٩] المصدر السابق، ص١٢٨.

[١٦٠] الأكّار: الفلاح.

[١٦١] الأبشيهي: المستطرف، ص١٢٨.

[١٦٢] المصدر السابق، ص١٢٩.

[١٦٣] المصدر السابق نفسه.

[١٦٤] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

زمنَ معاوية، ودخل عليه، فأقعده معه على السرير، وحدّثه. إن هذا الخبر العجيب يدلنا على تقلب الأحوال وتغيّر الأوضاع وكيف يدور الزمان، فمعاوية قد انتقم من وائل بطريقة لطيفة جداً حين تواضع له ونزل له عن مجلسه فكأنه في سلوكه معه، يذكّره بسوء تصرُّفه وقِلّة لباقته وحماقة سُلوكه، ولو أنه قابله بالغرور والكبرياء أوتلقّاه بالاحتقار والازدراء، لما كان له فضلٌ عليه ولما تميّز عنه في شيءٍ، وإذن فتصرُّف معاويةَ معه كان عِقاباً وَجيعاً له، وكأنه يقول له ضِمْنيّاً: انظر إلى مابيني وبينك من فَرْقٍ.

على أنّ الإسلام حارب الكِبْر، ونهى عن الخُيلاء، ودعا إلى العطْف والرحمة، رُوي أن الرسول ﷺ[١٦٥] «كان يَطْعَمُ مرّةً، فجاء رجلٌ أسودُ به جُذَريّ قد تقشّر، فجعل لا يجلس إلى أحدٍ إلاّ قام من جنبه، فأجلسه الرسول ﷺ إلى جنبه» فهذا مثال تربوي إنساني فيه من معاني التواضع والرحمة وعدم الاغترار بالمظاهر. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته حين تولى الخلافة: أمّا بعد أيها الناس فإنّي قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم؛ فإنْ أحسنتُ فأعينوني، إنْ أسأتُ فقوّموني. الصدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانة، والضعيف فيكم قويٌ عندي حتى أُريحَ عليه حقّه إنْ شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتى آخذ الحقَّ منه إنْ شاء الله[١٦٦]. ما أروع هذا الكلام، وما أشرف معناه، إنه يدّل على سموّ النظر ومَبْلَغِ رسوخ الإسلام في نفسه ولو أنّ بعض أهل الدنيا وأصحابها تقلّد أمور الناس لطغى وبغى، وتكبّر وتجبّر، ونسي نفسه، وانساق وراء دوافع النفس الميالة إلى الغطرسة والعنجهية، ولا عجب فلربما كانت المناصب تُعمي البشر، وتستولي عليها، وتُلْقي بهم إلى التَهْلُكة وقد يستعملها المرء في مرضاة الله. كان عمر بن عبد العزيز ينهج هذا النهج ويحذو هذا الحذْوَ، فالمنصب الرفيع لم يتمكن من إيقاعه في الكِبْر، بل جعله يفكرّ في حجْم المسؤولية المُلقاةِ على

---

[١٦٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ٣٥٥.

[١٦٦] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص٥٦.

www.mtenback.com

عاتقه. وهذه طبيعة العربي الذي باعد بين نفسه وبين الغرور وعرف كيف يحترم نفسه فيحترمه الناس.

الإذعان للحق:

ومن مظاهر التواضع أيضًا أنّ الرجل المتواضع إذا رأى الحق عرفه وخضع لـــه، فهو في خشية دائمة من غضب الله وفي حذر مستمرٍّ من نقمته. سئل الفُضيـــل عـــن التواضع: ماهو؟ قال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعتَه من صبيّ قبلْتَهُ، ولو سَـــمعْتهُ من أَجْهل الناس قبلتَه[١٦٧]. وأشار الرسولُ إلى هذا حين تكلم عن الكِبْر، فقـــال[١٦٨]: «الكِبْر مَن سفه الحقّ وغَمِصَ[١٦٩] الناس». وكان الصحابة الكرامُ لا يتورعون عـــن الاعتراف بالحقّ والإقرار به وما كان ذلك ليحطَّ من أقدارهم، أو يخفضَ من شـــأنهم، بل كان يزيدهم سُمُوًّا ورِفْعةً وتوقـــيرًا، ويزيدهم - في عيون الناس - هيبة ووقـــارًا. فعن أبي ذرَ قال: إنّي كنتُ سابتُ رجلاً، وكانت أمُّه أعجميةً، فعيّرتُه بأُمّه فشـــكاني إلى رسول الله. فقال: يا أبا ذرّ إنك امرؤ فيك جاهلية[١٧٠]. وروي عن أبي ذرّ أيضًـــا أنه قال: قاولتُ رجلاً عند النبي، فقلت له: يابن السوداء، فقال النبي ﷺ: يا أبـــاذرٍّ طفُّ الصاعِ طفُّ الصاع[١٧١]؛ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فَضْلٌ.فقال أبو ذّر رحمه الله: فاضطجعتُ، وقلتُ للرجل: قُمْ فطَأْ على خدّي. والحق أن موقف أبـــي ذّر هذا يدل على جملة من الأمور العظيمة فهو يندم على ما كان من أمره، ويقبل ما قالـــه رسول الله ﷺ بلا تردّد، ويعبّر عن إذعانه للحق تعبـــيرًا، ما عرفت الدنيا له نظـــيرًا

---

[١٦٧] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٢.

[١٦٨] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٥.

[١٦٩] غَمَص الناس: استصغارهم.

[١٧٠] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٢.

[١٧١] طف الصاع: بمعنى الناس كلهم سواء في النقص.

www.mtenback.com

حين وضع خدّه على الأرض كي يدوسه الرجل الأسود، فهل حفظ لنا التـــاريخ - في شتى أصقاع الدنيا - مثل هذا الموقف الخالد؟! لا إخال أن تاريخ الشعوب الأخـــرى سجّل مثل هذا الموقف النبيل. وعن السُّديّ[١٧٢] قال: خرج عمر بن الخطاب، فإذا هو بضوء نارٍ ومعه عبد الله بن مسعود، فأتبع الضوءَ حتى دخل دارًا، فإذا بسراج في بيت، فدخل، وذلك في جوف الليل، فإذا شـــيخٌ جالسٌ وبين يديه شرابٌ وقَيْنةٌ[١٧٣] تغنّيه، فلم يشعر حتى هجم عليه عمرُ، فقال: مارأيتُ كالليلة منظرًا أقبح من شـــيخ ينتظـــر أَجَلَه!.. فرفع رأسه إليه، فقال: بلى يا أمير المؤمنين ماصنعتَ أنت أقبحُ. تجسّستَ وقـــد نُهي عن التجسّس، ودخلتَ بغير إذن. فقال عمرُ: صدقتَ، ثم خَرَجَ عاضًا على ثوبه، وقال: ثكلتْ عمرَ أمُّه إن لم يغفِر له ربُّهُ..). ولو أنه كان جبّارًا متكبرًا لما شعر بالذنب ولما تراجع عن موقفه. وعن عطاء بن يسار[١٧٤]، قال: لمّا قدمتْ صفيّةُ مـــن خَيْـــبرٍ أُنزلتْ في بيت الحارثة بن النعمان فسمعَ نساءُ الأنصار، فجئـــن ينظـــرن إلى جمالهـــا، وجاءت عائشة مُنتَقبةً، فلما خَرَجَتْ خَرَجَ النبيّ على أثرها. فقال: كيف رأيتِ يـــا عائشةُ؟ قالت: رأيتُ يهوديّةً !.. فقال: لا تقولي ذلك، فإنها أسلمتْ وحَسُنَ إســـلامُها. فالتزمت عائشة الصمت لأنّ الحق برز لها وبدا لعينها.

محاسبة النفس:

ومن الأمور التي يتّسم بها المتواضعون أيضًا محاسبةُ النفس ومساءلة الذات، وفي ذلك تهذيب لها وتقويمٌ لسلوكها. لأن من يحاسبْ نفسه يتواضـــع للحـــقّ ويخضـــعْ لِصَوْلته، ومن أراد اللهُ به خيرًا عرّفه عيوب نفسه، قال سقراط[١٧٥]: لا شـــيء أضـــرُّ

---

[١٧٢] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص١١٥.

[١٧٣] القَيْنة: الجارية الأَمَة.

[١٧٤] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٣٥٢.

[١٧٥] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٣٣.

www.mtenback.com

بالإنسان من رضاه عن نفسه؛ فإنّه إذا رضيَ عنها اكتفى باليسير، ففاته كلُّ خطير. وقال لُقْمان[١٧٦]: لا تدع النَظَرَ في مساويكَ كلّ وقت؛ لأنّ تَرْك ذلكَ نَقْصٌ من محاسنك. فالتواضع هو معرفة الإنسان نفسه وقدرته على قراءة آراء الناس فيه وصلته بهم.

الابتعاد عن تتبّع عيوب الناس:

ومن التواضع وعلاماته أن المتواضع لا يُنقّر[١٧٧] عن عيوب الناس ولا يتسقّط هفواتهم وعثراتهم، بل يتعامى عنها اكتفاءً منه بما عنده، وقناعة بما لديه، وأنهم بَشَرٌ مثله مليئون بالعيوب، لذلك تراه يستر مايراه، ويواري ما يبدو له، وفي ذلك تواضع وشرف ونُبْل. قال الإمام الشافعي[١٧٨]:

لِسَانُكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعَايِبًا ... فَصُنْهَا وَقُلْ: يا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

وقال بعض الحكماء[١٧٩]: «ينبغي أن تستنبطَ لزلّة أخيكَ سبعين عُذرًا، فإنْ لم يقبلْه قلبُك فقُلْ لقلبكَ: ما أَقساكَ ؟!.. يعتذرُ إليكَ أخوك فلا تقبلُ عُذْرَه ؟!.. فأنتَ الْمَعْتُوبُ لا هو». وقد عبّر بشار بن برد عن هذا بقوله[١٨٠]:

إِذا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا عَلَى القَذى ... ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشارِبُهْ؟

---

[١٧٦] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٣٣.

[١٧٧] ينقّر: يبحث ويفتّش.

[١٧٨] الشافعي، أبو عبد الله، محمد بن إدريس: ديوان الشافعي، جمعه وعلق عليه: محمد عفيف الزعبي، بيروت، دار الجيل، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص٨٤.

[١٧٩] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١٠٦.

[١٨٠] بشار بن برد:ديوان بشار بن برد، القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٠م)، ج١، ص٣٠٩.

www.mtenback.com

فَعِشْ وَاحِدًا، أَوْ صِلْ أَخَاكَ، فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ

وهذا النمط من السلوك يدلّ على تواضعٍ ورحمةٍ وخشية من الله. قال معاوية[١٨١]: «إنّي لأَسْتحيي من ربّي أن يكونَ ذنبٌ أعظمَ من عفوي أو جَهْلٌ أكبرَ من حِلْمي، أو عَوْرَةٌ لا أُواريها بسَتْري». ومن ألطف الأخبار التي اشتملت عليها كتبُ الأدب أنّ الملكَ بَهْرام جُور خرج يومًا للصيد، فعنّ له حمارُ وحشٍ، فظلّ يُطارده حتى ظَفِر به، ثم نزل عن فرسه يُريد أن يذبحه، فرأى راعيًا قادمًا من البرّيّة مُقبلاً عليه. فقال له: أيها الراعي أمسِك بعِنان[١٨٢] فرسي حتى أذبحَ هذا الحمارَ، فأمسك الراعي به، وعَمَدَ بهرام جور إلى الحمار ليذبحه، وبينما هو كذلك إذْ حانتْ منه التفاتةٌ إلى الراعي، فلمحه وهو يستخرج من العِنان جوهرةً، وكان مُرصّعًا بالجواهر، فما نَبَسَ ببنت شَفةٍ وتشاغل عنهُ حتى أخذها، وقال بهرام جور في نفسه: النظرُ إلى العيب من العَيْب. ثم إنه امتطى فرسَه ولَحِقَ بعسكره، وعندما وَصَلَ إليه قال له وزيرُه: أين جوهرةُ عِنان فرسك أيها الملك السعيد؟ فتبسّم بهرام جور، ثم قال: أخذها من لا يردّها، وأبصرَه من لاينمّ عليه، فمن رآها منكم مع أحد فلا يُعارضْه بشيء بسبب ذلك[١٨٣].

إن التغاضي عن سقطات الناس من الستر، وهو خلق لا يستطيعه كل الرجال، ثم إن الكمال لله وحدهُ، والبشر فيهم النقص، والعاقل يعلم أنه إن لم يغض الطرف عن بعض السلوك الذي يظهر من أصحابه فقدهم، ولو أن كل واحد عاتب صديقه على هفواته لما قامت صداقات، ولا دامت علاقات. ثم إن العاقل إذا رأى الزلّة التمس لصاحبها العذر، وتغافل عنها، وأظهر غفلته عنها، ففي ذلك إكرام لنفسه أولاً، ودربة

---

[١٨١] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١٠١.

[١٨٢] العِنان: الرَّسَن واللِّجام.

[١٨٣] شيخو: مجاني الأدب، ج ٢، ص١٧٥.

www.mtenback.com

لها على تحمل سقطات الآخرين، وربما علم أولئك أنه إنما تعامى عنها و لم يكن غافلاً ولا غرّيرًا، فتسمو مكانته في نفوسهم، وترتفع في أنظارهم، ويعلمون أنه إنما دفعه الخلق الحسن والتواضع الجم لأن يمضي زلاتهم، وليقولوا في أنفسهم غفلت وما أنا غافل. أَمَا كان بهرام قادرًا على فضح الراعي والتشنيع عليه ؟! إن أخلاقه دفعته إلى التعامي ثم إلى تجاهل ما حدث، وبذلك تسمو مكانته في نظر صاحبه الذي غافله، ثم في نظر الآخرين وقد عرفوا أنه عالم بما حدث، وقد يتعرض الإنسان لما هو مثل ذلك أو دونه فيحسن به الستر والتخلق بأخلاق العرب وسلوكهم.

القناعة من التواضع:

ومن أبرز مظاهر التواضع أنك ترى المتواضعين راضين بعيشهم، قانعين برزقهم، وما ذلك إلاّ لإيمانهم بأنّ الله تفضّل عليهم، وغمرهم بنِعَمه، وأسبغَ عليهم آلاءه ظاهرةً وباطنة، قال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلاّ أعطاه اللهُ نَفْعَها في الدنيا، ورفعه بها درجةً في الآخرة»[١٨٤]، وهذا قريب جدًا من قول الرسول ﷺ: «مَن عظُمَتْ نعمةُ اللهِ عليه فليطلُب بالتواضُع شُكْرَها؛ فإنه لا يكون شكورًا حتى يكون متواضعًا»[١٨٥]. ومن الغباوة أن يتباهى الإنسان على الناس بما لديه من مال أو متاع، لأنّه – إذا فعل ذلك – يكون قد جحد فضل الله عليه ونسي إحسانه إليه. قال الحسن: «عيّرت اليهودُ عيسى عليه السلام بالفَقْر، فقال: مِن الغِنى أُتيتم»[١٨٦]، وقال محمود الورّاق[١٨٧]:

يَا عَائِبَ الفَقْرِ أَلاَ تَزْدَجِرْ[١٨٨] عَيْبُ الغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَبِرْ

---

[١٨٤] الغزالي: إحياء علوم الدين، ح ٣، ص٣٤٢.

[١٨٥] العاملي: المخلاة، ص٥٩.

[١٨٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢٠٩.

[١٨٧] المصدر السابق نفسه.

[١٨٨] ازدجر: امتنع وانتهى وكفّ عن الشيء.

www.mtenback.com

مِنْ شَـــرَفِ الفَقْـــرِ وَمِـــنْ فَضْلِـــهِ عَلَى الغِنَى إِنْ صَـــحَّ مِنْـــكَ النَّظَـــرْ
أَنَّكَ تَعْصِـــي كَـــيْ تَنَـــالَ الغِنَـــى وَلَيْـــسَ تَعْصِـــي اللهَ كَـــيْ تَفْتَقِـــرْ

وإذا قرر الإنسان شكر المنعم بما ناله من نعم فذاك تواضع للمنعم، لأنه قـــادر على زوال النعم وانتقالها إلى سواه، ثم إذا قنع الإنسان بما حصل له من الخير كان ذلك إشارة صدق إلى تواضعه، فالمتواضع زاهد فيما في أيدي الآخرين محب للخير للجميـــع، غير شغوف بالتحصيل الفاني والحطام الزائل، فهو إن افتقر شكر، وإن شملـــه الغنـــى شكر وهو في كلا الحالين متواضع للناس ولمن أنعم عليه أو حرمه.

وفقره لا يسيء إلى نفسه، ولا يشعره غناه بالتعالي على الآخرين، بل يكون له في الحالين واعظًا، فالفقر يدعوه لتحسس أحوال غيره من الناس، والغنى يلهيه عـــن مراعاة الفقراء، فهو معهم في العسر واليسر، لا يبطره مال، ولا يكسره عَوَز.

لكن بعض الناس لا يقنع بما آتاه الله، بل يطمع فيما عند غيره، ويحسد النـــاس على ما آتاهم الله من فضله، وفي ذلك عذابُه وهلاكه وتَبابُه، لأنه يعترض على قِســـمة الله، وقد هجا أحدُ الشعراء واحدًا ممّن يحسدونه، فقال[١٨٩]:

أَيَـــا حَاسِـــدًا لِي عَلَـــى نِعْمَتِـــي أَتَدْرِي عَلَـــى مَـــنْ أَسَـــأْتَ الأَدَبْ؟
أَسَـــأْتَ عَلَـــى اللهِ فِي حُكْمِـــهِ لأَنَّكَ لَمْ تَـــرْضَ لِـــي مَـــا وَهَـــبْ
فَـــأَخْزَاكَ رَبِّـــي بِـــأَنْ زَادَنِـــي وَسَـــدَّ عَلَيْـــكَ وُجُـــوهَ الطَّلَـــبْ

ولا شك أن هناك صلة قوية بين الإنسان المتواضـــع والحيـــاة الـــتي يعيشـــها والعلاقات التي يكونها مع من حوله ومن يحيط به وحتى لو كان الفارق كبـــيرًا بينـــه وبين من حوله فإن التواضع يخفف الفوارق الاجتماعية ويزيل الوحشة ويجعـــل المـــرء

(١٨٩) شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٤٦.

www.mtenback.com

وسطًا في مجتمعه ومع من حوله. والغنى فتنة لعدم التواضع ولكن العاقل هو من جعل غناه سبيلاً إلى قلوب الناس فيحبه الفقير ويحمده من لا يحتاج إلى ماله بشرط أن يكون متواضعًا هشًا كريمًا بخلقه ولو كان ماله في حرز مكين.

الثناء وميل النفس:

من طباع البشر حبّهم للثناء ورغبتهم في انتزاعه من أفواه الناس ولقد قالوا: «حبّ الثناء طبيعة الإنسان»، ولكنّ المتواضع على النقيض، فهو يرغب عن سماع الثناء والمدح تواضعًا منه ونفيًا لأوضار الغرور، فإذا امتدحه شخص أو أثنى عليه رأيته ينفي ذلك، وما يفعل هذا إلاّ لأنه يدرك أن الثناء مدعاة إلى الغرور وسببٌ في العُجْب والزهو. قال علي بن أبي طالب: «إذا فعلتَ كلّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئًا، وإذا أردتَ أن تُحمَد فلا يظهرْ منك حِرصٌ على الْحَمد»[١٩٠]. وقال أحد الحكماء: «ينبغي للعاقل أن يضبط نفسَه ويمنعَها من تصديق المدح لها؛ فإنّ للنفس مَيلاً إلى حبّ الثناء وسماع المدح»[١٩١]. وهذا لا تنصاع النفس للالتزام به إلا بالنظر لحقائق الأمور دون اغترار بظاهرها.

وكان عمر بن الخطاب، إذا أثنوا عليه خيرًا يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما يقولون، وأسألك أن تغفر لي ما لا يعلمون»[١٩٢]. وسمع الرسول الكريم رجلاً يُثني على رجل ويُطريه، فقال: «قطعتُم ظَهْرَ الرجل»[١٩٣]، وفي كثير من الأحيان يكون المدح تملُّقًا للممدوح وهو مدح غير صادق فإذا وجد الإنسان عذوبة اللسان غفل عن نفسه وغره ثناء الناس عليه إلا القليل الذي يعرف بواطن الأمور، وقد حذر الشاعر

---

[١٩٠] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٣٨.

[١٩١] المصدر السابق نفسه.

[١٩٢] الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد: تنبيه المغترين، دمشق، دار أسامة، (د.ت)، ص١٦٧.

[١٩٣] النووي: رياض الصالحين، ص٦٠٤.

www.mtenback.com

من ألسنة المداحين ووصف الاعتقاد بها بأنه غرور وقبولها جهل فقال محذراً من يحسن الظن في المادحين[١٩٤]:

يا جاهلاً غَرَّهُ إفْراطُ مادِحِهِ ... لا يغلبنْ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمَكَ بِكْ

أَثْنَى وَقالَ بِلا عِلْمٍ أَحاطَ بِهِ ... وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَحْصُولِ مِنْ رِيَبِكْ

وذهب قوم إلى أنّ المدح المؤدّيَ إلى الغرور مكروه، قالت العلماء: «إن كان الممدوح عنده كمالُ إيمانٍ ويقينٍ ورياضةُ نفسٍ ومعرفةٌ تامّة بحيث لا يفتتنُ ولا يغترّ بذلك ولا تلعبُ به نفسُه فليس (المدحُ) بحرام ولا مكروه، وإنْ خيف عليه شيءٌ من هذه الأمور كُرِه مدحُه في وجهه كراهةً شديدة» وذلك لأنه يترك أثراً مفسداً في خلق الممدوح[١٩٥]. وقيل لأفلاطون: «ما الشيءُ الذي لا يَحْسُن أن يُقال وإنْ كان حقًّا؟ قال: مدحُ الإنسان نفسَه»[١٩٦]. ومن ألطف ما قاله المعرّي وكان هو نفسُه آيةً في التواضع[١٩٧]:

دُعِيتُ أَبا العَلاءِ وَذاكَ مَيْنٌ ... وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبُو النُّزُولِ

وما أقوى حجّةَ عمر بن عبدالعزيز، حين علّق على رجلٍ سئل: مَنْ سيّدُ قومك؟ فقال: أنا، بقوله: «لو كنتَ كذلك لم تَقُلْه»[١٩٨].

يربط الناس في أعرافهم بين الإنسان وعمله في الدنيا أو مهنته التي يختارها لنفسه أو يستطيع القيام بها لإصلاح معاشه، وقد كانت الأعمال التي يمارسها الإنسان ولا تزال ذات صلة بملامح التواضع أو الغرور، ولأن التواضع مع الأعمال الجليلة هو الغاية

---

[١٩٤] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٣٩.

[١٩٥] النووي: رياض الصالحين، ص٦٠٤.

[١٩٦] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٤٠.

[١٩٧] المعري: لزوم ما لا يلزم، ج ٢، ص٣٤٨.

[١٩٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص٢١١.

www.mtenback.com

المرجوة، فقد يصلح الاستشهاد بمن يقوم بأعمال قليلة وأعمال جليلة فلا يميز بين القليل والجليل إلا بحسن الأداء والقدرة على التدرج من القليل إلى ماهو فوقه، وقد جاء في الحديث: «ما بعث اللهُ نبيًّا إلاّ رعى الغَنَم . قال أصحابه: وأنت؟! فقال: نعم كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهل مكة»[١٩٩]هذا هو الخُلُق العظيم، فمحمد ﷺ لا يأنف أن يقول: كنت أرعى الغنم وهو من هو في الشرف ورفعة القدْر، وسئلت عائشة: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ فقالت: «كان رسول الله ﷺ بشرًا من البشر؛ يَفْلي[٢٠٠] ثوبَه، ويحلُب شاتَه، ويخدم نفسَه»[٢٠١].

وكان أبوبكر أزهد الناس وأكثرهم تواضعًا سواء في أخلاقه أو مَلْبَسه أو مطعمه، وكان لُبسُه – في خلافته – الشَّمْلَةَ والعباءة، «قدم عليه زعماءُ العرب وأشرافُها وملوك اليمن وعليهم الحُلَلُ والحِبَرُ[٢٠٢] وبُرود الوشي المثقّل بالذهب والتيجانُ، فلمّا شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنُّسُكَ وماهو عليه من الوقار والْهَيْبَة، ذهبوا مَذْهَبَه ونزعوا ما كان عليهم.. حتى إنّه رُئي يومًا في سوق من أسواق المدينة على كَتِفه جلْد شاة، ففزعتْ عشيرتُه لذلك، وقالوا له: قد فضحْتَنا بين المهاجرين والأنصار والعرب !.. قال: أفأردتم منّي أن أكون ملكًا جبّارًا في الجاهلية، جبّارًا في الإسلام ؟ لا واللهِ لا تكون طاعةُ الربّ إلا بالتواضع لله والزهد في الدنيا»[٢٠٣].

ونادى عمر يومًا: «الصلاةُ جامعةٌ، فلمّا اجتمع الناس وكثروا صَعَدَ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه، وصلّى على نبيّه، ثم قال: أيها الناس لقد رأيتُني

---

[١٩٩] النووي: رياض الصالحين، ص٢٧٠.

[٢٠٠] يفلي الثوب: ينقّيه من القمل.

[٢٠١] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ص٢٥٢، ج٣.

[٢٠٢] الحِبَر: جمع حَبَرَة وهي نوع من بُرود اليمن.

[٢٠٣] شيخو: علم الأدب، ص١٥٨.

www.mtenback.com

أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضَة من التمر والزبيب، فأظلّ يومي وأيُّ يوم!.. ثم نَزَل. فقال عبدُ الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين ما زِدتَ على أنْ قَمَأْتَ نفسَك - يعني عِبْتَ - فقال: وَيْحَكَ يا بن عوف!.. إنّي خلوتُ، فحدّثتني نفسي، فقالت: أنت أميرُ المؤمنين فَمَنْذَا أفضلُ منكَ ؟ فأردتُ أنْ أُعرِّفها نفسَها»[٢٠٤]. هكذا كان الصحابةُ الكرام يقمعون أنفسَهم إذا داخلها شيء من الزَّهْو، أو وَسْوَسَ لها الشيطان، ولذلك كانت حياتُهم مثلاً حيًّا على التواضع والرحمة.

وأخبر الهَمْدَاني، قال: إنه رأى عثمان بن عفّان وهو على بَغْلَة، وخلفه غلامُه نائل وهو خليفة»[٢٠٥]. فأين نحن اليومَ ممّا كان عليه أولئك الرجال، لقد خَدَعَتْنا الدنيا، وَسَوَّلت لنا أنفسُنا، وأقبلنا على المظاهر البرّاقة، وَغَفَلْنا عن أنَّ عظَمَة الرجل في عمله وسلوكه، لا في المراكب الفخمة أو القصور الضخمة. حدّث الحسن، قال: «رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد في مِلْحفة ليس حوله أحدٌ وهو أمير المؤمنين»[٢٠٦]. وقال جرير بن عبد الله: «انتهيتُ مرّة إلى شجرة تحتها رجلٌ نائم قد استظلّ بِنطعٍ له، وقد جاوزت الشمسُ النِطْعَ، فسوّيتُه عليه، ثم إنّ الرجل استيقظ، فإذا هو سلْمان الفارسيّ فذكرتُ له ما صنعتُ. فقال لي: يا جرير تواضعْ لله في الدنيا، فإنّ مَنْ تَواضعَ لله في الدنيا رَفَعَهُ الله يومَ القيامة»[٢٠٧]. وعندما كان سَلْمَانُ أميرًا على المدائن جاءه رجل من أهل الشام ومعه حِمْلُ تين، فقال لسلمان: تعال احْملْ - وهو لا يعرف سلمان - فحمل سلمانُ، فرآه الناسُ فعرفوه، فقالوا هذا الأميرُ !.. قال: لم أعرفكَ. فقال له سلمان: لا، حتى أَبْلُغَ منزلكَ[٢٠٨].

---

[٢٠٤] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٣٥٤.

[٢٠٥] المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٥.

[٢٠٦] المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٦.

[٢٠٧] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص٣٤١.

[٢٠٨] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٢٦٠.

www.mtenback.com

وقد يتساءل أحدُنا: ما الفائدةُ من حَمْل سَلْمَان للتين؟ وما الغايةُ من هذا التصرف؟ أوَليس في هذا امتهانٌ للأمير وانتقاصٌ من قدْره؟ والجواب أنّ في مثل هذا التصرّف ارتفاعًا وسُموًّا، فما من ريب أنّ الرجل الشاميّ عندما رأى ما رأى من تواضع سلمان أجلّه وأكبره ورأى فيه كلَّ معاني الشرف.

وأبلغُ من هذا ما جاء في الأخبار، عن ثابتِ بن أبي مالك، قال: «رأيتُ أبا هُريرةَ أقبلَ من السُّوق يحمِل حُزْمةَ حَطَبٍ وهو - يومئذٍ - خليفةٌ لمروان فقال: أَوْسِعِ الطريقَ للأمير يا بن أبي مالك»[٢٠٩]. إنّ المناصب والمراتب لم تغيّر هؤلاء الرجال، ولم تجعل الغرور يتسلّط عليهم، بل زادتهم تواضعًا وإيمانًا بفضل الله وخوفًا من عذابه.

تواضع ذوي السلطان:

لا يكون التواضع تواضعًا حتى يصدر عن رجل قويّ (غنيّ أو عالِم أو أمير) وأمّا ما يصدر عن سواهم فهو دون ذلك درجةً: «قيل لعبد الملك بن مروان: من أفضلُ الناس؟ قال: مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفْعَةٍ، وزَهِدَ عن قُدرة، وأنصفَ عن قوّة»[٢١٠].

وقد سار الخلفاء والأمراء على هذا النهج القويم والمنهاج السديد حتى استقامت لهم الأمور وركعت دونهم الملوك. قال ابن عون: «كان الرجلُ يقول لمعاوية: والله لتستقيمنّ بنا يا معاويةُ أو لَنُقَوِّمَنَّكَ. فيقول: بماذا ؟ فيقول: بالخشب، فيقول: إذن نستقيمَ»[٢١١]. وما قال معاوية هذا إلاّ خضوعًا للحق وإذعانًا له، وليس في مثله هوان أو مذلّة، بل شرف وفخر ومجد.

وكان عمر بن عبدالعزيز مثلاً نادرًا في التواضع وخَفْض الجَناح، ومع أنّ الدنيا كانت في مُتناول يديه إلا أنه أعرضَ عنها وزهِد فيها طمعًا في رحمة الله ورغبةً في

---

[٢٠٩] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٥.

[٢١٠] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص١٦١.

[٢١١] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص١٤٤.

www.mtenback.com

اكتساب رضائه، قال أبو أميّة وكان غلامًا لعمر بن عبدالعزيز: «دخلتُ يومًا على مولاتي، فغدّتني عَدَسًا، فقلتُ: كلّ يوم عَدَسٌ ؟!.. قالت: يا بنيّ هذا طعامُ مولاكَ أميرِ المؤمنين !.. »[٢١٢].

وقال رجاءُ بن حَيْوَة: «سَمَرْتُ ليلةً عند عمر (بن عبدالعزيز)، فعَشِي السِّراجُ وإلى جانبه وصيفٌ. قلتُ: أَلاَ أُنبِّهُهُ؟ قال: لا. قلت: أفلا أقومُ ؟ قال: ليس من مروءة الرجل أن يستخدمَ ضيفَه، ثم حطّ رداءه عن منكبيه وقام إلى الدَّبة[٢١٣]، فصبَّ من الزيت في المصباح، وأَشْخَصَ[٢١٤] الفتيلة، وأصلح السِّراج، ثم رَجَعَ وقال: قمتُ وأنا عمر بن عبدالعزيز ورجعتُ وأنا عمر بن عبدالعزيز. لقد علم أن قيمة الإنسان فيما يحمل في نفسه من قيم ومعان خيريّة، وعلى رأسها التواضع وترك الاغترار والاستعلاء، ولو كان أمير المؤمنين. ورُوِي عنه أيضًا أنه كان قبل أن يُستَخْلَفَ «تُشْتَرَى له الحُلّةُ بألف دينار، فيقول ما أجودَها لولا خُشونةٌ فيها!.. فلمّا استُخلف كان يُشْتَرَى له الثوبُ بخمسةِ دراهمَ، فيقول: ما أجودَه لولا لينهُ. فقيل له: أين لباسُكَ ومركبُكَ وعِطْرُك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إنّ لي نَفْسًا ذواقة، لم تذق من الدنيا طبقةً إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافةَ – وهي أرفعُ الطِّباق – تاقتْ إلى ما عندَ الله»[٢١٥].

وبلغ من تواضعه أنه قال لجاريته يومًا: رَوِّحيني حتى أنام، فروَّحته فنام، فغلبها النوم فنامتْ، فلمّا انتبه أخذ المِرْوحةَ يُروِّحُها، فلمّا انتبهتْ صاحت. فقال لها: إنّما أنتِ بَشَرٌ مثلي، أصابكِ من الحَرِّ ما أصابني، فأحببتُ أن أُروِّحَكِ كما رَوَّحْتني»[٢١٦].

---

[٢١٢] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص١٨٠. مولاك: سيّدك

[٢١٣] الدبّة: وعاء للزيت.

[٢١٤] أشخص: أخرج وأبرز

[٢١٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٥.

[٢١٦] الروض الفائق، ص١٨٩.

www.mtenback.com

وممّا يقرب من هذا ما روي عن المنصور[٢١٧]، إذ رأتْ جاريةٌ له قميصه مرقوعًا فقالت: «خليفةٌ وقميصهُ مرقوع؟! فقال: ويحكِ أما سمعت قولَ ابنِ هَرْمَة:

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَتى وَرِداؤُهُ خَلِقٌ وَجَيْبُ قَميصِهِ مَرْقوعُ

ولم يكن الرشيد، وقد بلغت الدولة الإسلامية في عهده أوْجَ ازدهارها وقِمّةَ ثرائها وغاية اتّساعها، بأقلَّ من سابقيه تواضعًا وتسامحًا ورحمةً.

وبلغ من شدّة تواضعه للعُلماء واحترامه لهم أنه كان يقف لهم في الطريق ويسائلهم عن أحوالهم. روي أنّه «لقي الكسائيَّ في بعض طُرُقه، فوقف عليه، وتحفّى بسؤاله عن حاله. فقال: أنا بخير يا أميرَ المؤمنين، ولو لم أجدْ من ثمرة الأدب إلاّ ما وهبَ اللهُ تعالى لي من وقوف أمير المؤمنين، لكان ذلك كافيًا مُحتَسبًا». وكان ابنه المأمون على شاكلته تواضعًا ولُطفًا، فقد جلس العتّابي، وكان شيخًا مُسنًّا بين يدي المأمون، فلمّا أراد القيام قام المأمون، فأخذ بيده واعتمد الشيخُ على المأمون، فما زال ينهضه رويدًا رويدًا حتى أقلّه فنهض[٢١٨].

فالخليفة الذي لم تمنعه عِزّة الملك وجلالُ الخلافة أن يبادر إلى إنهاض شيخ من مقعده، وما ذلك إلا تواضع منه للعلم واحتفاء بأهله، وقال يحيى بن أكثم: " بتُّ ليلةً عند المأمون، فانتبهتُ في جوف الليل وأنا عطشان، فتقلّبتُ. فقال: يا يحيى.. ما شأنُك ؟ قلتُ: عطشان فوثبَ مِن مَرْقَدِه، فجاءني بكوز[٢١٩] من ماء. فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين ألا دعوتَ بخادم ؟ ألا دعوت بغلام؟ قال: لا. حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «سيّدُ القوم خادمُهم»[٢٢٠].

---

[٢١٧] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص٢١٣.

[٢١٨] الأصبهاني: الأغاني، ج١٣، ص١١٦.

[٢١٩] الكوز: إناء صغير كالإبريق.

[٢٢٠] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص٢٥٧.

www.mtenback.com

والعِظَة المستخلصة من هذه القِصّة أنّ المأمون يكرم ضيفه تطبيقًا لما قاله رسولُ الله فهو يمتَحُ من النَبْع النبويّ الطاهر، ويقتدي بسُنته العَطِرة، ويتخلّق بأخلاق سيّد الْمُرْسَلين عليه صلواتُ الله وسلامه. وعن يحيى بن أكثم قال: «ما رأيتُ أكرمَ من المأمون، بتُّ عنده ليلةً، فأخذه سُعال، فرأيتُه يَسُدّ فاه بكُمّ قميصِه حتى لا أنتبه»[٢٢١].

هذه هي الخلال الحميدة، وتلك هي الخصال الفاضلة التي كان عليها بعض قادة المسلمين وفضلائهم من الصالحين، لم يغرّهم جاه ولا سلطان، ولم تلههم الدنيا بحذافيرها عن معرفة الصواب ووضع الأمور في نصابها، فللصديق حق الصداقة، وللرعية حق الرعاية، وللزوجة حقوقها، وللأبناء حقوقهم وكل ذي حق له على الوالي حق لا ينكر، كما أن عليه من الواجبات ما لابدّ من النهوض به، والوالي وهو يمارس ذلك إنما يراعي الرّب فيما هو سائله عنه من تضييع الحقوق أو فساد في الأرض، وأول الفساد الغطرسة والكبرياء والتعاظم على الضعفاء بقوة الإمرة والسلطان، وحفظ تلك الحقوق لا يكون إلا بالتواضع واللين لهم ومحبتهم، فيكسبوه ودهم، وينصروه بدعائهم وإخلاصهم.

إن تواضع القوي لا يعد انتقاصًا من قدره أو امتهانًا لمقامه ومنزلته، بل في ذلك الشرف العظيم والذِكر العاطر والسُّمعة الحسنة. فكيف لا يُحبّه الناس ويحسنون إليه ويبادلونه الشعور الذي يعبر عن رضاهم لتواضعه ولاسيما إذا كان المتواضع حاكمًا يستطيع أن يعتز بسلطانه، وقد سجل التاريخ العربي قصصًا جميلة لحكام وأثرياء وأشراف من الناس اتسمت سيرتهم بالتواضع منهم نظام الملك الذي شهد له بالفضل والتواضع خصوصًا مع الضُعفاء، رُوي عنه أنه كان «إذا دخل عليه الأئمةُ الأكابر يقومُ لهم ثم يجلِس في مَسْنده، وكان يزوره شيخٌ فقير إذا دخل عليه قام له وأجلسه بين

---

[٢٢١] السيوطي: تهذيب تاريخ الخلفاء، ص٢٥٠.

www.mtenback.com

يديه. فقيل له في ذلك، فقال: إنّ أولئك إذا دخلوا عليّ يُثنون عليّ بما ليس فيّ فيَزيدُني كلامهم عُجْبًا وتيهًا، وهذا يذكّرني عيوبَ نفسي وما أنا فيه من الظُّلْم، فتنكسر نفسي لذلك، فأرجعُ عن كثيرٍ ممّا أنا فيه»[٢٢٢].

تواضع العلماء:

التواضع من أبرز صفات العلماء وأظهر سماتهم، وكلما ازداد الرجل علمًا أدرك سعة ماينقصه من علومٍ فازداد تواضعًا واعترافًا بفضل الله عليه، ومن الأمثلة على ذلك الخليل بنُ أحمدَ الفراهيديُّ، فقد كان واحدَ عصره وقريعَ دهره وجِهْبذَ[٢٢٣] أمته، ومع ذلك عاش في خُصٍّ[٢٢٤]، قال النَضْر بن شُمَيل: «أُكلَت الدنيا بأدب الخليل وكُتُبه وهو في خُصّ لا يُشْعَرُ به[٢٢٥]، وقد بلغ من تُقى الخليل وورعه أنْ قال فيه سُفيان بن عُيَيْنة: «مَنْ أَحَبّ أن ينظر إلى رجلٍ خُلِقَ من الذهب والْمِسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد»[٢٢٦].

وعلى غِراره كان العلماء القُدامى، شعارهم التقوى، ولَبُوسهم التواضع، وما ذلك إلا لسَعة علمهم، وغزارة معرفتهم، وثقتهم بأن الله ألقى عليهم عبئًا ثقيلاً ومسؤوليةً خطيرة، وأنّهم أئمةٌ للناس؛ بهم يقتدون، ومنهم يتعلّمون، وبأخلاقهم يَتحلّوْن.

وكان الحسن البصري[٢٢٧] إذا مشى الناسُ خلفه يمنعهم، ويقول: ما يُبقي هذا من قلب العبد. والحق أنّ سلوك الحَسَن هو غاية في مراقبة النفس ولجمها، وماهو إلا

---

(٢٢٢) شيخو: مجاني الأدب ج١، ص١٢٣.

(٢٢٣) الجِهْبذ: الناقد والعارف

(٢٢٤) الخُصّ: البيت من قصب أو شجر.

(٢٢٥) السيوطي: المزهر، ج١، ص٦٤.

(٢٢٦) المصدر السابق نفسه.

(٢٢٧) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٤.

www.mtenback.com

محاكاةٌ لسلوك رسول الله، لأنه كان إذا سار مع بعض أصحابه يأمرهم بالتقدُّم، ويمشي في غُمارهم[٢٢٨]، وذلك لتعليم غيره، أو لينفيَ عن نفسه وساوسَ الشيطان بالكِبْر والعُجْب. و«رُوِي أنّ سفيان الثوري قَدِم الرملةَ، فبعث إليه إبراهيمُ بنُ أدهمَ أنْ تعالَ فحدِّثنا، فجاء سفيان. فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا ؟!.. فقال: أردتُ أن أنظر كيف تواضُعه» [٢٢٩] إنه اختبار أصحاب العلم لصلاح قلوب بعضهم واستحقاقها شرف العلم واستكمال دواعيه.

وكان مالك بن دينار يقول: «لو أنّ مناديًا نادى بباب المسجد: ليخرج شرُّكم رجلاً ما كان أحدٌ – والله – يسبِقُني إلى الباب»[٢٣٠] وعندما سمع ابنُ المبارك قولته هذه علّق قائلاً: بهذا صار مالكٌ مالكًا[٢٣١]. ومن ألطف ما جاء في الأخبار أن زلزلةً أصابت أرضًا، فجاء قوم إلى مُحَمّد بن مُقاتل، فقالوا له: أنتَ إمامُنا؛ فادعُ الله عزّ وجلّ، قال: ليتني لم أكنْ سببَ هلاككم[٢٣٢]. وكان إبراهيم النخعيّ يقول: «إنّ زمانًا صرتُ فيه فقيهَ الكوفة لزمانُ سوء»[٢٣٣].

وصلى حذيفةُ بقوم، فلما سلّم من صلاته قال: «لَتَلْتَمِسُنَّ إمامًا غيري أو لَتُصَلُّنَّ وُحدانًا؛ فإني رأيت في نفسي أنّه ليس في القوم أفضلُ مني»[٢٣٤]. علّق الغزالي على هذا الخبر قائلاً: «فإذا كان مثلُ حُذَيْفةَ لا يَسْلَمُ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخّري هذه الأمة ؟!..». إن في هذا إشارة إلى أن النفس الإنسانية في امتحان أخلاقيّ دائم، فهي بحاجةٍ إلى رقيب يصون أخلاقها ويحفظها من الأدواء والعلل القلبية.

---

[٢٢٨] الغُمار: الزّحمة.

[٢٢٩] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٥٤.

[٢٣٠] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٢.

[٢٣١] المصدر السابق نفسه.

[٢٣٢] المصدر السابق نفسه.

[٢٣٣] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٣.

[٢٣٤] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٩.

www.mtenback.com

ولئن اتسم أكثر علماء الإسلام بالتواضع والسماحة فإن نفرًا منهم وقع في الغرور وجنح إلى الكِبْر، ولا عجبَ فالعالِم إنسانٌ، والإنسانُ ضعيف يخدعه الثناءُ، ويستهويه المديحُ، فينسى فضلَ الله عليه، ويتوهّم أن ما عنده من المعرفة والذكاء إنّما جاءه بكدّه وسَعْيه. قال الغزالي: ما أسرعَ الكِبْرَ إلى العُلماء! ولذلك قال ﷺ: «آفةُ العِلم الْخُيَلاء»، فلا يلبث أن يتعزّزَ العَالِم بعزّة العِلم، ويستشعرَ في نفسه جمالَ العلم وكماله ويستعظمَ نفسَه، ويستحقرَ الناس، وينظرَ إليهم نَظَرَه إلى البهائم، وربّما استجهلَهم، وتوقّعَ أن يبدؤوه بالسلام.. وأن يرقّوا له، ويخدموه شكرًا له على صنيعه، بل الغالبُ أنهم يبرونه فلا يبرُّهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، أو استخدم مَن خالطه منهم واستسخره في حوائجه، فإنْ قصّر فيه استنكره، كأنهم عبيدُه، أو أُجَراؤه، وكأنّ تعليمه العِلمَ صنيعةٌ منه إليهم، ومعروفٌ لديهم، واستحقاق عليهم.

وقد كثرت الأقوال التي تصوّر فداحة تكبُّر العلماء وجسامة غرورهم ومبلغ خطئهم، لأن ذلك من أسوأ الأمور؛ فهو يصدّ الناس عن العلم، ويصرفهم عنه، قال كعب الأحبار: «إنّ للعلم طغيانًا كطغيان المال»[٢٣٥]، وقال عمر رضي الله عنه: «العالِمُ إذا زلّ زلّ بزلّته عالَمٌ»[٢٣٦]، ثم إنّ غَلْطَةَ العالِم أكبرُ من غلطة الجاهل وأَشدُّ ضَرَرًا، وعذابُ العالِم ليس كعذاب الجاهل، قال ﷺ: « يُؤتى بالعالِم يومَ القيامة، فيُلْقى في النار، فتندلقُ أقْتابُه فيدور كما يدور الحمارُ بالرحى، فَيُطِيفُ به أهلُ النار، فيقولون: مالَكَ؟ فيقول: كنتُ آمرُ بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشرّ وآتيه»[٢٣٧]. ولعل من أروع ما قِيل في ذمّ الكِبْر الذي يصدر عن أهل العلم، أبياتًا قالها الواسِطي[٢٣٨]:

---

[٢٣٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٦٣.

[٢٣٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٦٣.

[٢٣٧] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب ١٠، حديث رقم ٣٢٦٧.

[٢٣٨] ابن عساكر: مدح التواضع وذمّ الكبر، ص٤٣.

www.mtenback.com

كَـمْ جَـاهِلٍ مُتَواضِـعٍ ... سَـتَرَ التَّواضُـعُ جَهْلَـهُ
وَمُـبَرِّزٍ فِـي عِلْمِـهِ ... هَـدَمَ التَّكَـبُّرُ فَضْلَـهُ!
فَـدَعِ التَّكَـبُّرَ مَـا حَيِيـتَ ... وَلاَ تُصَاحِبْ أَهْلَـهُ

ويجأر الغزاليُّ بالشكوى من اغترار العلماء في زمانه ومن مُداخلة العُجب لهم ويُعبّر عن أسفه لما حلّ بهم، لذلك يقول معلّقًا على من جنح من العلماء إلى الكبر ومال إلى الزّهْو والصَّلَف: «وهذا بأن يُسمّى جاهلاً أولى من أن يُسمّى عالمًا، بل العِلمُ الحقيقيُّ هو الذي يعرف الإنسانُ به نفسَه وربَّهُ وخَطَرَ الخاتمة»[٢٣٩]، ثم إنه يترحّم على العلماء القُدامى، فيقول: «هيهاتَ أن يسمحَ الزمانُ بمثلهم!.. فهم أربابُ الإقبال، وأصحاب الدُّوَل، قد انقرضوا في القَرْن الأول ومَنْ يليهم، بل يعزّ - في زماننا عالِمٌ يختلِجُ [٢٤٠] في نفسه الأسف والحُزْن على فوات هذه الخَصْلَة، فذلك أيضًا إمّا معدوم، وإمّا عزيزٌ.. ولو عرَفنا ذلك - ولو في أقصى الصِّين - لَسَعَيْنا رجاءَ أن تشمَلنا بركتُه وتسريَ إلينا سِيرتُه وسَجيّتُه»[٢٤١].

جزاء التواضع معجل في الدنيا وحاضر نفعه وهو أشرف الكسب الذي يكسبه المرء في حياته، وقد جاء في الحديث: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢٤٢]. حين يكون في عمله وتواضعه رضا من حوله ومن يعيش معه ويربطه به رباط اجتماعي أو صلة قرابة فيبادله الناس تواضعه وحبه بحب وتواضع فيحسن لقاؤه ومجالسته ويطيب الحديث معه ويأنس به الناس فيكون أجر التواضع مقدمًا له في حياته ومجتمعه.

ومن أشرف فنون التواضع برُّ الوالدين.

---

[٢٣٩] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٦٣.

[٢٤٠] يختلج: يتحرَّك.

[٢٤١] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٩.

[٢٤٢] أخرجه مسلم في كتاب البر، حديث رقم ٦٩..

www.mtenback.com

التواضع للأبوين:

بر الوالدين وخفْض الجناح لهما من مكارم الأخلاق، قال عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٢٤٣]. وكيف لا يتواضع الإنسان لمن حملته في بطنها وهْنًا على وهْن تسعة أشهُر، وغَذَتْهُ بلبنها، وعُنيتْ به حتى استوى كائنًا عاقلاً ؟ بل كيف لا يقف خاشعًا في حضْرة الرجل الذي منحه اسمه، وشرّفه بالانتماء إليه والإنفاق عليه حتى بلغ مَبْلَغَ الشباب ؟!وكيف لا يتواضع الإنسان لمن يتجرّعان كؤوسَ الآلام، ويذوقان صنوف العذاب وضروب الشقاء عند مرضه وغيابه؟ وقد وصف الشاعر هذه العلاقة بقوله:

لَوْكانَ يَدْرِي الإِبْنُ أَيَّةَ غُصَّةٍ ... يَتَجَرَّعُ الأَبَوانِ عِنْدَ فِراقِهِ
أُمٌّ تَهِيجُ بِوَجْدِهِ حَيْرَانَةً ... وَأَبٌ يَسِحُّ الدَّمْعُ مِنْ آمَاقِهِ
يَتَجَرَّعانِ لِبَيْنِهِ غُصَصَ الرَّدَى ... وَيَبُوحُ ما كَتَماهُ مِنْ أَشْواقِهِ
لَرَثَى لأُمٍّ سُلَّ مِنْ أَحْشائِها ... وَبَكَى لِشَيْخٍ هامَ في آفاقِهِ
وَلَبَدَّلَ الخُلُقَ الأَبِيَّ بِعَطْفِهِ ... وَجَزاهُما بِالعَذْبِ مِنْ أَخْلاقِهِ

سأل رجل النبيّ ﷺ، فقال: يارسول الله إنّي حملتُ أمي على عُنُقي فرسخين في رمضاءَ[٢٤٤] شديدةٍ، لو أُلْقِيَتْ فيها بَضْعةُ[٢٤٥] لحمٍ لَنَضِجَتْ. فهل أدّيتُ

---

[٢٤٣] سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

[٢٤٤] الرمضاء: حرارة الأرض من شدّة وقْع الشمس.

[٢٤٥] بَضْعة: قطعة لحم.

www.mtenback.com

شُكرَها؟!.. فقال: «لعلّه أن يكون لِطَلْقةٍ واحدة»[٢٤٦]. وعن أنس قال: «أتى رجلٌ رسول الله، فقال: أشتهي الجهادَ ولا أقدر عليه. قال: هل بَقِي من والديك أحد؟! قال: أمّي. قال: قابلِ اللهَ في برّها، فإذا فعلتَ ذلك فأنت حاجٌ ومُعتمِر ومجاهد»[٢٤٧]. وعن طَلْحَة بنِ معاوية السُّلَمّي قال: «أتيتُ النبي فقلتُ: يارسول الله إنّي أريد الجهاد في سبيل الله. قال: أمُّكَ حيّة ؟ قلتُ: نعم. قال: الزمْ رِجْلَها؛ فَثَمّ الجنّة»[٢٤٨].

هذه هي القيم الإسلامية الخالدة وهذا هو الخُلُق الرفيع الذي دعا الناسَ إليه، فلا عجبَ بعدَ ذلك أن نرى المُسلم حريصًا كلَّ الحرْص على طاعة الأبوين والرأفة بهما والتواضع لهما. سئل عُمَر بن ذرّ عن ابنه وكان بَرًّا به: مابلغ من برّه بك ؟ فقال: مامشى معي بنهارٍ قطُّ إلا قدّمني، ولا بليلٍ إلاّ تقدّمني، ولا رَقِيَ سطحًا وأنا تحته[٢٤٩].

والتواضع للوالدين يحمل معنيين، معنى الوفاء ورد الجميل مقابل ماقدما له من رعاية وعناية، فالمرء الكريم يكافئ على الجميل ولو صنعه له غريب أو عابر سبيل ويفي لمن أصابه معروفه مرّة واحدة ولاينسى أن يحمده ويثني عليه ويشكره كلّما مرَّ ذكره أو حانت ساعة من معروفه، والوالدان أعطيا حياتهما وعواطفهما للولد فإذا رد بعض الجميل عليهما في برهما وطاعتهما والتواضع لهما فإنه يرد جميلاً لايكافئه، ودينًا لايستطيع قضاءه. الثاني أن الجزاء على برّ الوالدين يعجل للبار بأن يرزق الولد الذي يبره كما برَّ أبويه ويسعد برضا الناس عنه إذا علموا بره ورحمته ثم يكافأ بأن يكون أولاده بررة به محسنين إليه عند حاجته إليهم وعوزه إلى خدمتهم أو معروفهم وقد جرب العرب حتى في الجاهلية مايلقاه الأولاد البارون من جزاء معجل في الدنيا،

---

[٢٤٦] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص١٦٩.

[٢٤٧] صحيح مسلم، بلفظ آخر: وفيه «أحيٌّ والدك...» كتاب البر والصلة باب ١، حديث رقم ٦٥٠٤.

[٢٤٨] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص١٧٢.

[٢٤٩] المبرّد: الكامل، ج١، ص١١٧.

www.mtenback.com

وعرف البر بالوالدين سلوكًا عربيًا وخلقًا اجتماعيًا سارت عليه أجيال العرب ومجدته عاداتهم شعرًا ونثرًا.

التواضع للضيف:

اشتهرت العرب قديمًا وحديثًا بإكرام الضيف ورعايته والتواضع له، وهذا دليل على رُقيّ في الطّباع وسُموٍّ في الخُلُق، حتى إنّ العربي كان -إذا أكرم ضيفه- يشعر بلذة ما بعدها لذةٌ وبسعادة مافوقها سعادة، وقد صوّر لنا الحطيئةُ[٢٥٠] ذلك في إحدى قصائده، إذْ حدّثنا عن رجلٍ هَمّ بذبح ولده حين لم يجد ما يُقدّمه لضيفه، فلما تهيّأت له الفُرْصةُ ومرّت دونه الحُمُرُ الوحشيةُ، وأصاب أتانًا منها، تهلّل فَرَحًا، وقَرّ عينًا، وطاب نفسًا:

فَيا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّها نَحْوَ أَهْلِهِ ... وَيابِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَها يَدْمى

وَباتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشاشَتِهِ أَبًا ... لِضَيْفِهِمُ، وَالأُمُّ مِنَ بِشْرِها أُمّا

وفي هذه القصيدة يبدو الرجل الكريم كالأب الحنون في رعايته للضيف، وتبدو زوجته كالأم للضيف، و لم يقتصر الأمر على هذا، بل إن بعضَ الشُّعراءِ أشار إلى أنه وإن كان سيّدًا مطاعًا في عشيرته، فإن مكانته لا تمنع أن يخدم ضيفه كما يخدم العبد سيده ولايجد غضاضةً في خضوعه له أو منقصة، وإنّما يعدّ ذلك مكرُمة له ومفخرة، يكررها ويذكرها في شعره ويعدها من محامد زمانه، وقد أثنى الناس على المتواضع لكل من يتعامل معه ولكنهم في تواضعهم للضيف ضربوا المثل الأعلى. يقول المقنع الكندي واصفًا نفسه ومبتهجًا بعمله وخدمته لضيفه[٢٥١]:

وَإِنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مادامَ ثاوِبًا[٢٥٢] ... وَما شِيمَةٌ لِي غَيْرُها تُشْبِهُ العَبْدا

---

[٢٥٠] الحطيئة، جرول بن أوس: ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، (١٩٥٨م)، ص٣٩٧.

[٢٥١] القالي: الأمالي، ج١، ص٢٨١.

[٢٥٢] ثاويا: مقيما ونازلاً.

www.mtenback.com

ومن أوضح الدلائل على تواضع العربي لضيفه أنه يستقبله – وإن كان لا يعرفه – بالبشر والتَّرْحاب، ويتهلل وجهه وكأنه يقابل صديقًا حميمًا بعد غيبة طويلة، فيقول[٢٥٣]:

أُضاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزال رَحْلِه ... وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالمَحَلُّ جَدِيبُ

وَما الخِصْبُ لِلأَضْياف أَنْ يَكْثُرَ القِرى ... وَلَكِنَّما وَجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

وبلغ من إكرام العرب للضيف وتواضعهم له وعطفهم عليه وبرهم به، أنْ قَدَّموه على أهلهم، وآثروه على أنفسهم، وجعلوه في أعلى مَقام، قال معنُ بن أوس[٢٥٤]:

وَلَسْتُ بِماشٍ ما حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ الأَمْرِ ما يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي

وَلا مُؤْثِرًا نَفْسِي عَلَى ذِي قَرابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي، ما أَقامَ، عَلَى أَهْلِي

وعندما جاء الإسلام طور هذا الخلق الحميد وحافظ عليه، ودعا إليه، وعدّه من شُعَبِ الإيمان ففي الحديث[٢٥٥]: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكرِمْ ضيفَه». وقد اتسع مفهوم الضيافة وتشعبت أغراضها واهتم بها الأجواد والموسرون حتى صارت خلقًا ودينًا وسلوكًا محمودًا.

التواضع للعلماء:

ومن ضروب التواضع أن يحترم طالب العلم أستاذه، ويُبجّل معلّمه، ويوقّر مُربّيَهُ ومُؤدِّبَهُ، لأنه صاحبُ فَضْلٍ عليه، بل إنّ فضله قد يفوق فضْلَ أبيه أحيانًا، ولا عجبَ أنْ يقول أحدُ الأدباء[٢٥٦]:

---

[٢٥٣] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١١.

[٢٥٤] القالي: الأمالي، ج٢، ص٢٣٤.

[٢٥٥] النووي: رياض الصالحين، ص٣٠٤.

[٢٥٦] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٢١.

www.mtenback.com

أُقَدّمُ أُسْتاذِي عَلى نَفْسِ وَالِدي ... وَإنْ نَالَني مِنْ وَالِدي الْفَضْلُ والشَّرَفْ

فَذاكَ مُرَبِّي الرُّوحِ وَالرُّوحُ جَوْهَرٌ ... وَهَذا مُرَبِّي الجِسْمِ وَالْجِسْمُ مِنْ صَدَفْ

وقد سبقه إلى هذا عليٌّ قال: «إذا كان الآباء هم السببَ في الحياة فَمُعلّمو الحِكْمة والدين هم السبب في جَوْدتها»[٢٥٧]. ولا ينبغي للإنسان – عند تحصيل العلم – أن يتكبّر، بل عليه أن يتواضع للعلماء ويحتمل عبوسهم وتجهُّمَهم، ذلك أنّه، إذا أنِفَ أوضاق ذَرْعًا، لم يظفر بطِلْبَته، ولم يصِلْ إلى بُغيته، فطريق العلم محفوفةٌ بالعذاب. والمتعلّمُ محتاجٌ إلى الصبر، قال يحيى بنُ أبي كثير[٢٥٨]: لا يتعلّمُ من استحيا وتكبّر، وقال موفّق الدين البَغْدادي[٢٥٩]: مَن لم يَعْرَقْ جبينهُ على أبواب العُلماء لم يُعْرِقْ في الفضيلة، ومَن لم يُخجلوه لم يبجّلْهُ الناس، ومَن لم يبكّتوه[٢٦٠] لم يُسَوَّد، ومَن لم يحتمِلْ أَلَمَ التعلُّم لم يذُقْ لذّةَ العِلْم.

وكُتُبُ الأدب حافلةٌ بأخبار المُتعلّمين الذين ذاقوا العذاب وتحمّلوا الهوان وصبروا على أهوال العِلم، وقد أنشد بعضهم[٢٦١]:

دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النفوسِ وَأَلْقَوا دُونَهُ الأُزُرَا

فَكابَدُوا المَجْدَ حَتّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وَعانَقَ المَجْدَ مَنْ أَوْفى وَمَنْ صَبَرا

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

(٢٥٧) صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص١٠.

(٢٥٨) الوشّاء: المُوشّى، ص١٩.

(٢٥٩) شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص٦٣.

(٢٦٠) بكّت: عنف ووبّخ وقرّع.

(٢٦١) عوّامة، محمد: المختار من فرائد النقول، بيروت، دار البشائر، (١٩٨٧م)، القسم الأول، ص٦٠.

www.mtenback.com

وهم بذلك قد نالوا شرف العلم مع تربية النفس، إذ لاقيمة للعلم مع نفس متجبرة مستعلية لم تروّض بالحرمان والأخذ بالعزيمة، وقيل للإسكندر[٢٦٢]: ما بالُك تُعظّم مُؤدّبَك أكثر من تعظيمك لأبيك ؟ فقال: إنّ أبي سبب حياتي الفانية، وأمّا مؤدّبي فسَبَبُ حياتي الباقية. وبلغ من احتفاء الخليفة العباسيّ هارون الرشيد أن صَبّ الماء على يدي أستاذه بعد أن فَرَغَ من تناول طعامه. قال أبو معاوية الضرير[٢٦٣]: أكلتُ عند الرشيد يومًا، ثم قمتُ لأغسلَ يديّ فصَبّ الماء عليّ وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يَصُبّ عليك الماءَ؟ قلتُ له: لا. قال: يصبُّ عليك أمير المؤمنين. قال أبو معاوية: فدعوتُ له. فقال: إنّما أردتُ تعظيم العِلْمِ. ومن الأخبار اللطيفة في هذا المقام ما رُوي عن إكرام الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر للعلماء، فقد وَفَدَ في أيامه أبو عليٍّ القالي على الأندلس. فأمر ابنَه الحَكَمَ باستقباله، فأوعز الحكمُ إلى عامله ابن رماحس أن يسير مع أبي علي القالي إلى قرطبة وأن يتلقّاه في وفدٍ من وجوه الرعيّة تكرمةً للعالم الذي قدِم من المَشْرِق، ففعل وسار معه نحوَ قُرْطُبَةَ في موكبٍ نبيل، وكانوا خلال ذلك يتذاكرون الأدب ويتناشدون الأشعار[٢٦٤]. هكذا كان العلم يكرّم، وهكذا كانت العلماء تُبجّل، فياليتنا اليوم نتقيّل خطاهم ونجري على سُنّتهم ولو فعلنا ذلك لبلغنا ذروة المجد. ودخل يومًا مؤدّبُ الواثق (محمد بن زياد) عليه، فأظهر إكرامَه، وأكثَرَ إعظامَه. فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أوّل مَن فَتَقَ لساني بذِكر الله، وأَدْناني من رحمة الله[٢٦٥].

---

[٢٦٢] شيخو: مجاني الأدب، ج١، ص٢١.

[٢٦٣] ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص٢١٥.

[٢٦٤] القالي: الأمالي، المقدّمة ص: ك.

[٢٦٥] شيخو: مجاني الأدب، ج٢، ص١٣٤.

www.mtenback.com

وكان المسلمون الأوائل يسيرون - كما تقدم - في الأرض هَوْنًا، فلا يجرُّون إزارًا، ولا يصعّرون خدًّا، ولا يأنفون من تحية من دونهم حرصًا منهم على كسب رضاء الله والفوز بعفوه، ودخول جنته عملاً بقوله ﷺ[٢٦٦]: «من جرّ ثوبَه خُيلاءَ لا ينظرُ الله إليه يومَ القيامة». قال أنس[٢٦٧]: «لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لِما يعلمون من كراهته لذلك». وكان يمشي في بعض الأوقات مع بعض الأصحاب، فيأمرهم بالتقدّم ويمشي في غُمارهم، قال أبو الدرداء[٢٦٨]: «لا يزال العبدُ يزداد من الله بُعْدًا ما مُشِيَ خَلْفَه». ولو أننا حاولنا عرض ما كان عليه المسلمون من السلوك المتواضع والاختلاط بالعامّة والمشي في الأسواق وحمل الحوائج لسطرنا صفحات طويلة مستفيضة مما يكثر رسمُه ويطولُ وصفُه[٢٦٩].

وكان عمر يُؤاكل الفقراء والمعوزين ويدعوهم إلى الطعام ولا يأنف من مؤاكلة الأرقّاء والعبيد، عن أبي محذورة رضي الله عنه[٢٧٠] قال: كنت جالسًا عند عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذ جاء صفوانُ بن أميّةَ بجَفْنَةٍ، فوضعها بين يدي عمر. فدعا عمرُ ناسًا مساكين وأرقّاءَ من أرقّاء الناس حَوْلَه، فأكلوا معه، ثم قال عند ذلك: لحى[٢٧١] اللهُ قومًا يرغبون عن أرقّائهم أن يأكلوا معهم.

وقد حاول الإسلام ترويض الطباع الجامحة والنفوس الأبيّة العَصِيَّة ومحا كل ما كان في الجاهلية من صنوف الفخر والعنجهية وألوان الكبر والتيه والغطرسة وخير مثال على ذلك قصة جَبَلَةَ بنِ الأَيْهَمِ الغَسَّانّي مع الرجل الذي وطئ إزاره في الحرم فأساء

---

[٢٦٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٣٩.

[٢٦٧] المصدر السابق، ج٣، ص٣٥٤.

[٢٦٨] المصدر السابق نفسه.

[٢٦٩] المكّي، محمد بن علي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج٢، ص٢٣٣.

[٢٧٠] الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٣، ص٣٤٠.

[٢٧١] لحى: لعن.

www.mtenback.com

إليه وتعدى حرمات الزمان والمكان في حقه ولما أراد الانتصاف منه أخذته العزة بالإثم و لم يقبل والقصة مشهورة[٢٧٢].

ومن الجدير بالذكر أنّ أهل التقوى والوَرَع كانوا يذكّرون الخلفاءَ والأمراء - إذا لمسوا فيهم كِبْرًا أو غرورًا - بخطئهم وربما أنّبوهم على ذلك ولاموهم وأعادوهم إلى جادّة الصواب، ومن الغريب أن أولئك الأمراء كانوا يذعنون لوعظهم ويستجيبون لإرشادهم، قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا أيام خلافته، فقال: ائتوني برجلٍ من الصحابة. فقيل له: قد تفانَوا[٢٧٣]. قال: فَمن التابعين. فأُتيَ بطاووسَ اليمانيّ، فلمّا دخل عليه خلع فعليه بحاشية بساطه و لم يُسلّم عليه بإمْرةِ المُؤمنين، بل قال: السلامُ عليكَ، و لم يُكنّه، ولكن جلس بإزائه، وقال له: كيف أنت ياهشامُ ؟ فغضبَ هشامٌ غضبًا شديدًا، وقال: ياطاووس ما الذي حَمَلَكَ على ما صنعتَ ؟ قال: وما صنعتُ؟ فازداد غضبُه، وقال: خلعتَ نعلَك بحاشية بساطي، و لم تُسلّم عليَّ بإمرة المؤمنين، و لم تكنّني، وجلستَ بإزائي، وقلت: كيف أنت ياهشامُ !.. فقال طاووسٌ: أمّا خلْعُ نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدَيْ ربّ العزّة كلَّ يوم خمسَ مرّاتٍ فلا يغضب عليَّ لذلك. وأمّا قولُك: لم تسلّم عليَّ بإمرة المؤمنين فليس كلُّ الناس راضين بإمرتك فكرهتُ أن أكذبَ. وأمّا قولك: لم تكنّني فإنّ الله سمّى أولياءه فقال: يا داود ويا يحيى ويا عيسى، وكنّى أعداءه، فقال: تبّت يدا أبي لهب وتبّ. وأمّا قولك: جلستَ بإزائي فإنّي سمعتُ أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالبٍ يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار؛ فانظر إلى رجلٍ جالسٍ وحوله قومٌ قيام[٢٧٤]. وصاح رجلٌ

---

[٢٧٢] انظر: الأصبهاني: الأغاني، ج١٥، ص١٦٢.

[٢٧٣] تفانوا: ماتوا وهلكوا.

[٢٧٤] العاملي: الكشكول، ج٢، ص١٢٢.

www.mtenback.com

بالمأمون: ياعبد الله... ياعبد الله. فغضب، وقال: أتدعوني باسمي ؟!.. فقال الرجلُ: نحن ندعو اللهَ باسمه. فسكتَ المأمون[٢٧٥].

ولعل هذا كان تعليمًا وتربية ومناسبة للحال فالخليفة قد لايكون في حاشيته من يجرؤ على تعليمه أو الاعتراض على تصرفه فلما جاءه من ليس منهم استغل الحال وانتهز المناسبة ليذكر الخليفة بطبيعة الأشياء والناس ويرده إلى بشريته حتى لاينسى، ولايدخل هذا في سوء الأدب ولايناقض واجب المجاملة المطلوبة لصاحب الشأن أو المكانة.

الفرق بين التواضع والضّعة

سبق القول إن التواضع خلقٌ حميد، يتنازل فيه الإنسانُ عن شيء من قدْره لغرضٍ نبيل وهدفٍ سامٍ. والمتواضع ليس وضيعًا؛ لأن التواضع يختلف كل الاختلاف عن الضّعة، فالضّعة هي الذُل والانحطاط، والتواضع لا يصدر إلاّ عن الأقوياء كالحُكام والأغنياء والعلماء، لذلك لا يُوصف الفقير إذا خَفَضَ جناحه للغنيّ بالتواضع، كما لا يُوصف الضعيف إذا خضع للقويّ وانقاد له بالتواضع، فتواضع الفقير للغني ضربٌ من التذلل أو التملُّق، وتواضع الضعيف للقوي نوع من الاستخذاء والهوان. وإذن فلا بدّ لمن يتواضع من قوة يتمتّع بها، وقد قيل: التواضع في الخَلْق كلّهم حسن وفي الأغنياء أحسن، والتكبُّر في الخَلْق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح [٢٧٦].

على أنّ هناك شرطًا آخر للتواضع، وهو الحفاظ على الكرامة، فلا ينبغي للمرء أن يتواضع في حضرة متكبّر، لقوله ﷺ[٢٧٧]: «إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبّرين فتكبّروا عليهم، فإنّ ذلك مذلّةٌ لهم وصَغار»[٢٧٨]. وقيل لعبد

---

[٢٧٥] العاملي: الكشكول، ج٢، ص١٩٧.

[٢٧٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٣.

[٢٧٧] المصدر السابق، ج٣، ص٣٤١.

[٢٧٨] الصّغار: الذلّ والهوان.

www.mtenback.com

الملك بن مروان[٢٧٩]: أي الرجال أفضلُ ؟ قال: من تواضع عن قُدْرةٍ، وزَهِدَ عن رغْبة وتَرَكَ النُّصْرة عن قوةٍ. وهذا يفسِّر أيضًا معنى كلام ابن السماك حين قال للرشيد[٢٨٠]: يا أمير المُؤْمنين إنّ تَواضُعَك في شرفك أشرف لك من شرفك. فقال له: ما أحسنَ ما قُلْت!.. فقال يا أمير المؤمنين إنّ امرأً آتاه اللهُ جَمالاً في خِلْقته، وموضعًا في حسَبه، وبَسَطَ له في ذات يده، فعفّ في جَماله، وواسى من ماله، وتواضع في حَسَبه، كُتب في ديوان الله من خالص أوليائه. وإلى هذا المعنى نفسه أشار المأمون إذ قال: أَظْلَمُ الناس لنفسه مَن يتقرّب إلى من يُبعِدُه، ويتواضع لمن لا يُكرِمُه، ويقبلُ مدحَ مَن لا يعرفه. وقد زاد الغزالي هذا المعنى وضوحًا، وضرب لنا عليه مثلاً، فقال[٢٨١]: والمحمودُ أنْ يتواضع المرءُ في غير مَذَلّة ومن غير تخاسُسٍ وأحبُّ الأمور إلى الله تعالى أوساطُها.. والمحمودُ هو العَدْلُ، وهو أن يُعطيَ كلَّ ذي حقٍ حقَّه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومَن يقرُبُ من درجته، فأمّا تواضعُه للسُّوقيِّ فبالقيام والبِشر في الكلام والرِّفْقِ في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك.

ولابد للإنسان من مقابلة المتكبرين بالتكبر، قال يحيى بن مُعاذ[٢٨٢]: التكبّر على ذي التكبُّر بماله تواضعٌ. وقال أحد الزهاد [٢٨٣]: «ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجلس الفقراء رغبةً منهم في ثواب الله تعالى، وأحسنُ منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عزّ وجلّ». ولا ينبغي أن يتوهم الإنسان أن التواضع مذلّة، بل العكس هو الصواب، وقد صدق من قال[٢٨٤]: العزّ في التواضُع، ومن طلبه في الكِبْر أخطأ، فكان كمن يَتَطَلَّبُ الماءَ في النار.

---

[٢٧٩] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤٢.

[٢٨٠] المصدر السابق نفسه. وانظر الحصري: زهر الآداب، ج٤، ص٨.

[٢٨١] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٦٨.

[٢٨٢] الذماري: تصفية القلوب، ص٢٠٤.

[٢٨٣] المصدر السابق، ص٢٠٣.

[٢٨٤] الشرباصي: موسوعة أخلاق القرآن، ج١، ص٧١.

www.mtenback.com

وينبغي لنا في هذا المقام أيضًا أن نفرق بين الكِبْر والأنفة. فالكبر ضرب من الحُمق والغباوة، أمّا الأَنَفَةُ فمظهر من مظاهر النبل والشرف وبُعد المَطْمَح ورُقي النفس، قال المنفلوطي[٢٨٥]: كثيرًا ما يُخطئُ الناس في التفريق بين التواضع وصِغَر النفس، وبين الكِبْر وعُلوّ الهمّة، فيحسبون المُتذلّل المُتملّق الدنيء متواضعًا، ويُسَمُّون الرجل إذا ترفّع عن الدنايا وعَرَفَ حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني مُتكبّرًا، وما التواضع إلاّ الأدبُ، وما الكِبر إلا سُوء الأدب. فالرجل الذي يَلْقاكَ مُبتسمًا متهلّلاً، ويُقْبِلُ عليكَ بوجهه ويُصغي إليك إذا حدّثته، ويزورك مُهنّئًا ومُعزّيًا، ليس صغيرَ النفس كما يظنّون بل عظيمُها؛ لأنه وجدَ التواضُعَ أَلْيَقَ بعظمة نفسِه فتواضع، والأدبَ أرفع لشأنه فتأدّب:

فَتى كانَ عَذْبَ الرُّوحِ لا مِنْ غَضاضَةٍ　　وَلَكِنَّ كِبْرًا أَنْ يُقالَ بِهِ كِبْرُ

فإنْ بلغ الذلُّ بالرجل أن يُنكّس رأسَه للكبراء، ويترامى على أيديهم وأقدامهم لَثْمًا وتقبيلاً، ويَتَبَذَّلَ بمخالطة السُّوقة والغَوْغاء بلا ضرورة ولا سبب، ويُكْثِرَ من شَتْم نفسه وتحقيرها ورَمْيها بالجهل والغباوة، ويجلس بمدارج الطُّرُق جلسةَ البائس المُتسوّل، ويمشي مِشْيَةَ الخائف المُبْلِس، فاعلمْ أنّه صغيرُ النفْس، ساقطُ الهِمَّةِ، لا متواضعٌ ولا متأدّب.

إن العربي الشهم هو من يعرف نفسه قبل غيره وينزلها منزلها ويحترم الناس لامن ضعف أو خوف ولكن لحقهّم عليه وصلتهم به، ويحفظ لذاته مكانتها وكرامتها وقوة شخصيته التي تحترم القوة والعزم وتمثل الرجولة الحقة، إن العرب في هذا الزمن أحوج مايكونون إلى التواضع بلا صعف والقوة بلا صلف.

---

[٢٨٥] صادر: جواهر الأدب، ج٤، ص٢٩٩.

www.mtenback.com

كيف ننشر فضيلة التواضع

رأينا ما للتواضع من أثر عظيمٍ في صَقْل النفوس وتهذيبها، وعَرَفْنا أيضًا ما له من فوائد في شيوع المحبّة وفُشوِ الخير بين أفراد المجتمع، وهذا يدعونا إلى العناية بهذا الخُلُق العظيم أشدَّ العناية بُغيةَ غرسه في نفوس الصغار ونشره بين الناس وناشئة العرب، كي يغدو طبْعًا راسخًا وسلوكًا حيًّا في وجدانهم وتربية لنفوسهم.

إذا جعلنا للتواضع في كلِّ كتاب مدرسيّ فَصْلاً خاصًّا لكي تتّضح فوائدُه وتتجلّى محاسنهُ، وماذلك بعزيزٍ؛ فكُتُبُ التراث لدينا غنيّة بأقوالٍ وأمثالٍ وقِصصٍ تحثّ على هذا الخُلُق الحميد وتشجّع عليه. ولاشك أنه يتكرر مثلها في الحاضر، وطبيعة السلوك البشري هي التجدد والتكرار.

ثم إنّ ندْب بعض الأدباء لتأليف قصص عن التواضع أمرٌ في غاية الأهمية؛ لأن للأسلوب القَصصيّ وسائله الممتعة، وطرائقه الشائقة، حتى إنّه يُعدّ من أنجع الوسائل في نشر القيم الأخلاقية وتحويلها إلى سلوك واقعي ملموس ولا بأس في الاستفادة أيضًا من المواقف النبيلة التي ينطوي عليها تُراثنا، فبوسع كُتّاب القصة أن يرجعوا إلى موارد في كتب التراث من الأخبار والآثار، فيقوموا بنشرها وتوسعتها وتعميقها وإضفاء ما يمكن من ألوان التشويق عليها كي تغدو منهلاً عذبًا للناشئين.

ولعلّ الأفلام السينمائية أو التلفزيونية من أجزل الوسائل نفعًا وأكثرها فائدة في مجال إبراز فضيلة التواضع والحثّ عليها، فهي تمتاز بسَعة الانتشار وشدّة الجاذبية وعُمق التأثير. هذا ومن الملحوظ اليوم أنّ الصِّغار، والكبار أيضًا، يُعرِضون عن قراءة الكتب، ويُقبلون على مشاهدة الأفلام، ولاعجبَ فالمشاهدة أسهل من القراءة؛ لأنها لا تحتاج إلى كدِّ الذهن وإعمال الخيال، وهي تمتاز فضلاً عن ذلك، بالألوان الزاهية، والتمثيل البارع، والأداء المُتقَن، وهي أمور تساعد على رسوخ الفكرة في الذهن، وعلوقها في النفس، وانطباعها في الذاكرة إلى آخر مراحل العمر.

www.mtenback.com

ولدينا وسيلة تفوق ما تقدّم من حيث الأهمية، وهي كتابة العبارات التي تحفز إلى التواضع على لوحات جدارية لتُعلّق في الصفوف والمكاتب والإدارات الرسمية حتى تغدو شعارات مفيدة. وممّا لا ريب فيه أنّ التأنق في كتابتها، والتجويدَ في إخراجها، من أقوى دواعي علوقها في الذاكرة وشيوعها على الألسن واختيار العبارات ذات الوقع الموسيقي الجذاب وذات الحروف القليلة التي يسهل حفظها وتذكرها وسرعة تمثل معانيها ودلالاتها.

إن فائدة مثل هذه الأقوال، حين تُحوّل إلى لوحات جدارية، كبيرةٌ جدًا؛ إذ توجّه الناس إلى السلوك القويم، وتُسدّد خُطاهم على طريق الحياة، وترشدهم إلى الفضائل، وتنقذهم من السقوط في حَمْأة الرذائل، فضلاً عن اكتسابهم الفصاحةَ وقوّةَ الحُجّة وبيان الأغراض وسلامة القصد وحسن الأدب.

وعلينا أن نغرس فضيلة التواضع في نفوس الصغار؛ لأنهم رجال المستقبل، فإذا رأينا منهم نزوعًا إلى الكِبْر والاستعلاء، أو جُنوحًا إلى الغُرور والخُيلاء، عمدنا إلى نُصحهم وإرشادهم وتقويم سلوكهم، وإذا آنسنا منهم تواضعًا يتحلّى في طاعة الآباء وتوقير العلماء واحترام الشيوخ، بادرنا إلى الإشادة بهم والثناء عليهم. وكان ينبغي أن نعرفهم ونبين لهم ونفرق ما بين الضَّعة والتواضع من فروق، فالتواضع ليس ذلاً ولا خضوعًا وإنما هو قوّة ورجولة ونُضْج، ويومًا إثر يوم، يتحوّل التواضع إلى فضيلةٍ مركوزةٍ في الضمائر والقلوب، بل يتحول إلى سلوك قويم يعود بالخير على الفرد والمجتمع. وفّق الله الجميع إلى الخير، وسدّد خُطاهم وحقق أمانيّهم، وآمالهم.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيــــة	رقمها	الصفحة
آل عمران	﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ... الآية﴾	١٥٩	٢٨
يوسف	﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ... الآية﴾	٩٢	٣٣
الإسراء	﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ... الآية﴾	٢٣-٢٤	٦١
	﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ... الآية﴾	٣٧	١١
الفرقان	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ... الآية﴾	٦٣	١١
الشعراء	﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ... الآية﴾	٢١٥	٣٢
القصص	﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ... الآية﴾	٨٣	١٨
لقمان	﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ... الآية﴾	١٨	١١
فصلت	﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ... الآية﴾	٣٤	٣٢
الرحمن	﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ... الآية﴾	١٠	٧
الشرح	﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ... الآية﴾	٢	٧

موقع الدكتور عبد الله المطلق
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة»	١٨
«آفة العلم الخيلاء»	٥٩
«ألا أخبركم بأحبكم إليَّ...»	١٩
«إلى أين يا أبا ليلى...»	٢٧
«... أمُك حيّة ؟...»	٦٢
«إنما أتقبل الصلاة ممّن تواضع لعظمتي...»	١٣
«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا...»	١١
«خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين..»	٢٨
«خيّرني ربي بين أمرين...»	١٩
«سيد القوم خادمهم»	٥٥
«طوبى لمن تواضع في غير مسكنة...»	١٨
«قطعتم ظهر الرجل»	٤٩
«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري...»	١٢
«... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراً من البشر...»	٥١
«كان يطعم مرّة، فجاء رجلٌ أسود...»	٤٢
«كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً...»	٢٩
«الكبر من سَفه الحقّ وغمص الناس»	٤٣
«كُل بيمينك...»	٤٠
«كيف رأيت يا عائشة...»	٤٤
«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو...»	٣٢
«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم...»	١٢

www.mtenback.com

الحديث	الصفحة
«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»	١٢
«لا يدخل الجنة من كان في قلبه خردلة من كبر»	٣٦
«... لعله أن يكون بطلقة واحدة»	٦٢
«ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم...»	٥١
«ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»	٦٠
«ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله...»	٢٨
«مالي وللدنيا...»	٣٤
«مَن أنظر معسراً أو وضع له...»	٧
«من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر لله وضعه الله»	٥٢
«من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله...»	٦٧
«من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً...»	٧
«من عظمت نعمة الله عليه...»	٤٧
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»	٦٤
«من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر...»	١٢
«... هل بقي من والديك أحد ؟...»	٦٢
«هوّن عليك فإني لست بملك...»	٢٩
«يا أبا ذر إنك إمرؤ فيك جاهلية»	٤٣
«يا أبا ذر طفّ الصاع طفّ الصاع...»	٤٣
«يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى...»	٥٩
«يجاء يوم القيامة بالجبارين والمتكبرين...»	١٣

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ى ـ		
فيا بشره	يدمى	الحطيئة	٢	٦٣
		ـ ب ـ		
أيا حاسداً	الأدبْ	–	٣	٤٨
إذا شئت	العجبا	–	١	١٩
ما الناس	انقلبوا	–	٢	١٥
إذا أنت	مشاربُهْ	بشار بن برد	٢	٤٥
أضاحك	جديبُ	–	٢	٦٤
لِدوا	تبابِ	أبو العتاهية	٢	١٤
		ـ د ـ		
إذا كان	معبدُ	حاتم الطائي	٢	٢٦
سأطلب	مُرد	المتنبي	١	٨
واني لعبد	العبدا	المقنع الكندي	١	٦٣
واني	موقدِ	عبيد بن الأبرص	٣	٢٧
		ـ ر ـ		
دببتَ	الأزُرا	–	٣	٦٥
يا عائب	تَعَبَرْ	محمود الوراق	٣	٤٧
بلغنا	مظهرا	النابغة الجعدي	١	٢٧
تورعوا	خطرُ	المعري	١	١٧
فتى	كبرُ	–	١	٧١

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
وقد علم	وفرُ	حاتم الطائي	٣	٢٥
عش	القصورِ	أبو العتاهية	٤	٣٧
وحقك	الفقيرِ	–	٢	١٧
أبا جعفر	بالوفرِ	أبو العتاهية	٣	١٥
سلي	مجزري	عروة بن الورد	٢	٢٧
		ـ ع ـ		
كبت	الضلَعْ	سويد بن أبي كاهل	٣	٧
تواضع	رفيعُ	–	٢	٢٠
قد يدرك	مرقوعُ	ابن هرمة	١	٥٥
		ـ ف ـ		
أقدم	الشرفْ	–	٢	٦٥
وأصبحت	يعرفُ	حاتم	٣	٣٠
يا أيها	منافِ	–	٣	٣١
		ـ ق ـ		
لو كان	فراقِـه	–	٥	٦١
إذا امتحن	صديـقِ	–	١	٣٤
		ـ ك ـ		
يا جاهلاً	بكْ	–	٢	٥٠
		ـ ل ـ		
كم جاهلٍ	جهلَهُ	الواسطي	٣	٦٠
أتبني	قليلُ	–	٢	١٦

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
فكم قرنٍ	جيلِ	—	٢	١٤
دعيت	النزولِ	المعري	١	٥٠
ولستُ	مثلي	معن بن أوس	٢	٦٤
سأقنع	بمالِ	أبو العتاهية	٣	١٥
— م —				
وأغفر	تكرّما	حاتم	١	٣٣
ألهى	كلثومِ	—	١	٢٤
أثني	أُظلمِ	عنترة بن شداد	٤	٢٦
— ن —				
أبا هند	اليقينا	عمرو بن كلثوم	٤	٢٤
ياذا	حَينا	عَبيد بن الأبرص	٤	٢٢
ورثنا	يبينا	عمرو بن كلثوم	٤	٢٣
أحسن	إحسانُ	أبو الفتح البُستي	١	٢٨
لسانك	ألسنُ	الإمام الشافعي	٣	٤٥
أنا ابن	تعرفوني	سحيم بن وثيل	١	٨
— ي —				
ووراءَ	راعيها	حافظ إبراهيم	٦	٣٥

موقع الدكتور عبد الرحمن بن معلا اللويحق www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

الأبشيهي، محمد بن أحمد، أبو الفتح:

المستطرف في كل فن مستظرف، مصر، مكتبة البابي الحلبي، ١٩٤٢.

الأصبهاني، علي بن الحسين، أبو الفرج:

الأغاني، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٧- ١٩٧٤م.

الألوسي، محمود شكري:

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح محمد بهجة الأثري، مصر، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٣١٤هـ.

الأموي، عماد الدين:

حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب، بيروت، مصور عن المطبعة اليمنية، ١٣١٠هـ وهو مطبوع بهامش كتاب قوت القلوب للمكّي.

ابن الأنباري، محمد بن القاسم، أبو بكر:

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف ١٩٦٣م.

البستي، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين:

ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

بشار، بن برد:

ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد رفعة فتح الله ومحمد شوقي أمين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م.

www.mtenback.com

البغدادي، عبد القادر بن عمر:

خزانة الأدب ولب لُباب لسان العرب، القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م، تحقيق: عبد السلام هارون.

البيهقي، إبراهيم بن محمد:

المحاسن والمساوئ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:

سنن الترمذي، أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه بدر الدين جتين أر، دار سحنون، إستانبول، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

التوحيدي، علي بن محمد، أبو حيان:

الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، بلا تاريخ، مكتبة الحياة.

الجاحظ، عمرو بن بحر، أبو عثمان:

ـ البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مصر، لجنة التأليف والنشر ١٩٤٨م.

ـ المحاسن والأضداد، عني بتصحيحه: محمد أمين الخانجي الكتبي، مصر، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٢٤هـ.

ـ التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٤م.

الجزائري، أبوبكر جابر:

منهاج المسلِم، المطبعة العلمية، طبعة جديدة، ١٩٩٠م.

حافظ إبراهيم:

ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

www.mtenback.com

الحريفيش، الشيخ شعيب:

الروض الفائق في المواعظ والرقائق، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٤٩م.

حسين، طه:

تعريف القدماء بآثار أبي العلاء، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.

الحُصْريّ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري:

زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: زكي مبارك، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٥م.

الحطيئة، جرول بن أوس:

ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٨م.

أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي:

تفسير البحر المحيط، الرياض، مكتبة النصر الحديثة، بلا تاريخ.

الدجوي، أحمد سعيد:

فتح الخلاّق في مكارم الأخلاق، حلب، مطبعة التوفيق.

الذّماري، يحيى بن حمزة:

تصفية القلوب من دَرَن الأوزار والذنوب، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، ١٩٨٨م.

الزبيدي، شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف:

مختصر صحيح البخاري المسمّى التجريد الصريح، ضبطه وعدّله وشرح جمله وخرّج أحاديثه الدكتور مصطفي ديب البغا، دمشق، مطبعة الصباح ١٩٨٨م.

www.mtenback.com

السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر:

تهذيب تاريخ الخلفاء، تهذيب وتحقيق: نايف العبـــاس، دمشـــق، دار الألباب + دار الرمة والعقيق، ط١، ١٩٩٠م.

الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس:

ديوان الإمام الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار الجيل، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، أبو المواهب:

تنبيه المغترّين، دمشق، دار أسامة بلا تاريخ.

شيخو، لويس:

مجاني الأدب في حدائق العرب، بيروت، مطبعـــة الآبـاء اليســوعيين، ١٩٢٨م.

علم الأدب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط٢، ١٩١٣م.

الشرباصي، أحمد:

موسوعة أخلاق القرآن، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٩٨١م.

صادر، سليم إبراهيم:

جواهر الأدب من خزائن العرب، بيروت، المطبعة العلمية، ١٩١٢م.

الصُّولي، أبوبكر، محمد بن يحيى بن عبد الله:

أخبار الشعراء المسمّى كتاب الأوراق، عُني بجمعه: ج. هيوارث دن.

الطائي، حاتم بن عبد الله بن سعد أبو سقانة:

ديوان حاتم الطائي، لندن، مطبعة آل سام، ١٨٧٢م.

www.mtenback.com

العاملي، محمد بن حسين، بهاء الدين:

- المخلاة، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٧م .

- الكشكول، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، مصر، ١٩٦١م.

ابن عبد ربّه الأندلسي، أحمد بن محمد، أبوعمر:

العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، القاهرة، لجنة التأليف والنشر ١٩٦٥م.

ابن عساكر، علي بن الحسن، أبو القاسم:

مدح التواضع وذمّ الكِبْر، تحقيق: محمد عبد الرحمن النابلسي، دمشق، بيروت، دار السنابل، ١٩٩٢م.

عوّامة، محمد:

المختار من فرائد النقول والأخبار، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٩٨٧م.

الغزالي، محمد بن محمد، أبوحامد:

إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، طبعة مصوّرة، بلا تاريخ.

فيصل، شكري:

أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

القالي، إسماعيل بن القاسم، أبو عليّ:

الأمالي، بيروت، المكتب التجاري.

الكاندهلوي، محمد يوسف:

حياة الصحابة، تحقيق: جماعة من العلماء، القاهرة، دار الريان، ١٩٨٧م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر:

البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٥١هـ- ١٣٥٨هـ.

www.mtenback.com

المُبرّد، محمد بن يزيد، أبوالعباس:

الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و السيد شحاتة، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م.

المعرّي، أحمد بن عبد الله، أبو العلاء:

لزوم ما لا يلزم، لبنان، دار صادر، بلا تاريخ.

سقط الزند، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٤م.

المكي، محمد بن عباس، أبو طالب:

قوت القلوب في معاملة المحبوب، بيروت، دار صادر «بلا تاريخ» طبعة مصوّرة عن طبعة المطبعة الميمنية بمصر.

المنذري، زكي الدين، عبد العظيم بن عبد القوي:

مختصر مسلم، تحقيق وتخريج: د. مصطفى ديب البغا، دمشق، مطبعة الصباح، بلا تاريخ.

النابغة، الجعدي قيس بن عبد الله:

شعر النابغة الجعدي، دمشق، منشورات المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٦٤م.

النووي، يحيى بن شرف أبو زكريا:

رياض الصالحين، تحقيق: جماعة من العلماء، وتخريج: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت المكتب الإسلامي، ١٩٩٢م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:

نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية.

الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى:

الألفاظ الكتابية، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٨٨٥م.

www.mtenback.com

الوشّاء، محمد بن إسحاق، أبو الطيب:

المُوشّى أو الظرف والظرفاء ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥م.

الوطواط، محمد بن إبراهيم:

غُرر الخصائص الواضحة، مصر، المطبعة الكلية، ١٩١٢م.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com